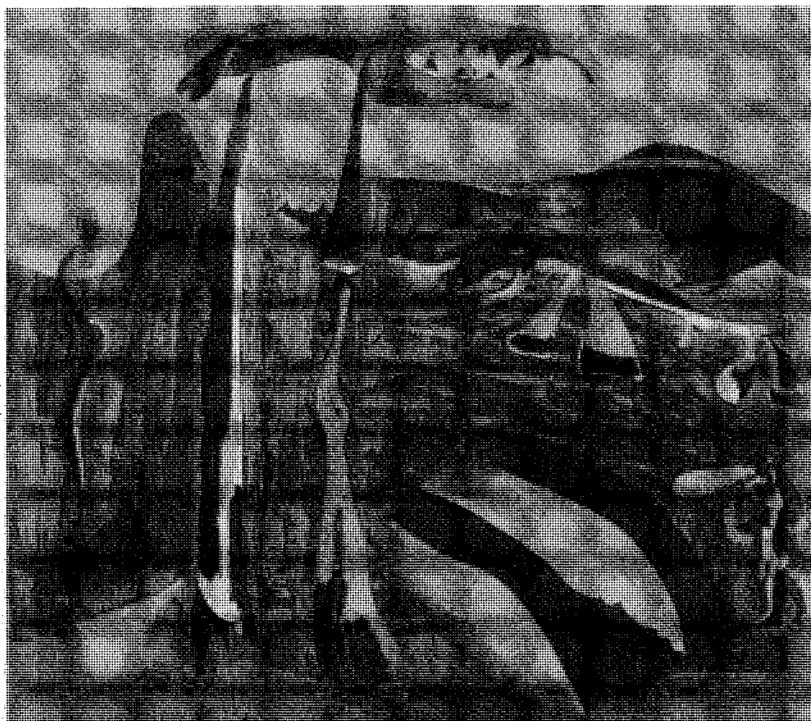
يحيى خضّور



البيت والدخان

قصص ومذكرات

حرب «٦» تشرين التحريرية ـ ١٩٧٣ م

البيت والدخان

البيت والدخان

* البيت والدخان
قصص ومذكرات عن حرب «٦» تشرين التحريرية - ١٩٧٣ م
* بقلم القاص يحيى خضّور
* الطبعة الأولى ١٩٩٨

* تنفيذ: الأهالي

١ - ٨١٨,٠٣ خ ض و ب ٢ - العنوان ١٩٩٨
٣ - خضور ٤ - يحيى مكتبة الأسد

يحيى خضّور

البيت والدخان

قصص ومذكرات

عن حرب «٦» تشرين التحريرية - ١٩٧٣ م

الفهرس

الإهداء

إلى المجاهد العربي الكبير الرئيس المناضل **حافظ الأسد**.

بطل قراري الحرب والسلم، المنافح عن كرامة الأمة العربية، المتمسّك بقيمها النبيلة، ومآثرها التاريخية العريقة ـ الباعث لأصالتها، الواثق من نهوضها، ومتابعتها رسالتها في إحياء قيم الحرية والحق والخير والعدل والسلام والمحبة والرحمة، هذه القيم والمآثر التي اتصف بها القادة العرب، وجسّدها القائد الأسد في مسيرته الظافرة، مواطناً، ومعلماً، وقائداً.

إلى الذي تحمل المسؤولية الوطنية والقومية بكل شجاعة وشرف وإخلاص وتفانٍ، منكراً لذاته، مضحّياً بحياته الخاصة وبأعزّ مايملك إنسان في هذه الدنيا: ـ العمر والولد ـ في سبيل إعلاء شأن الوطن، وقوته، ومنعته، وصونه، وخير أبنائه، فمضى في سبيل ذلك صلباً كالحق، ساطعاً كالفضيلة، نقياً كالشرف.

إلى الذي قاد حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ التحريرية، ومعارك البناء والتحرير الوطني، مسيّجاً بلاده بعزيمة الرجال، يوم خارت العزائم، ووَنَت القوى، وتزعزعت المقاييس، وتألّب الباطل على الحقّ، وكلحت الوجوه. متحدّياً كل الأعاصير، مخيّباً كل الرهانات التآمرية

للمستعمرين ونظرائهم، وطابورهم الخامس، نافذاً من نيرانهم نفاذ ابراهيم من نار الكفار، كاسراً لأطواقهم، مفككاً لألغامهم وفخاخهم الضاربة عمقاً وخفاء في كل مفرق ومعبر، واثقاً من نضاله وهدفه، ونفسه، وربه، وأبناء بلاده في مسيرة البناء والتحرير واستقلال القرار، متمسكاً بعهد صيانة التراب الوطني من كل معتد أو طامع أو مقامر.

وإلى كل وطني مخلص شجاع، أينما كان موقعه، ومهما كان عمله، على سطح هذا الكوكب، من الذين يجيبون على الحرب بالحرب، وعلى السلام بالسلام.

وإلى رفاقي المقاتلين، إخوة السلاح، جنود الجيش العربي السوري البواسل، من مختلف الرتب، الذين خاضوا حرب «٦» أكتوبر ١٩٧٣ م بكفاءة شهد لهم فيها الأعداء قبل الأصدقاء، وتضحية وفداء يتقراهما الاستراتيجيون الكبار في هذا العالم، في ثرى الجولان وجبل الشيخ، كلّما قلّبوا صفحات التاريخ، منقبين عن دروس في الشجاعة والقدرة والخبرة والروح الفدائية المبذولة رخيصةً في سبيل الوطن والحرية والسلام.

أقدم مجموعتي هذه من مذكرات وقصص تلك الحرب التي كان لي شرف المشاركة فيها عام ١٩٧٣م.

الكاتب القاص يحيى خضور

قصتي مع هذه المجموعة من:
«قصص وذكريات حرب ٦ أكتوبر التحريرية عام ١٩٧٣م»

لم أكن أكتب للنشر يوماً، وإنّما كنت أكتب للذكرى فحسبُ. إلا أنني، وفي لحظةٍ من اللحظات، شعرت أنّ الذي أملكه من مخزون مذكرات هذه الحرب وقصصها، ليس من حقي وحدي، وإنما من حق أبنائي وأمثالهم من أجيال وطني العربي، ولاسيّما أنَّ هذه القصص قد قُدِّر لها ولكاتبها أن يحظيا بمحاورة السيد الرئيس حافظ الأسد شخصياً، الذي هو قائد تلك الحرب الظافرة، وبطلها الأول، وصاحب أول حرف أو لون خطه كاتب أو شاعر أو مغنٍّ أو رسّام أو صاحب يراعٍ في هذه الحرب، متغنياً ببطولاتها، منتشياً أو مفتخراً، مؤرخاً أو مباركاً أو مستفِزّاً تعنُّت الأعداء وغرورهم، متحدِّياً صلفهم الذي مارسوه حيناً من الدهر، راسماً من جديد، آثار خطوات الجندي العربي فوق خارطة الدنيا. وقد كان ذلك عندما زار السيد الرئيس موقعنا في الجبهة السورية الصامدة أبداً في وجوه أعداء الوطن والعروبة والسلام، في ظروف المعارك، تصحبة نخبة من قادة الجيش وأركان عملياته.

تحدّث إلينا السيد الرئيس بسلاسةِ داعٍ. وصلابة معتقدٍ من أولئك الذين أوتو الرؤيا، ومازجوا الغيبَ. ومُنِحوا المهابة والاحترام والطاعة، ومُسحوا بالسِّحر، ووهبوا القدرة على الاتصال بالأذهان والأرواح من غير ماتكلّف، وأُعطوا صلاحية البث والحضور في الزمان والمكان من غير ما استئذان.

وكانت الابتسامةُ، الوعدُ، لاتفارق ثغره. لأنَّها ابتسامة المحبة، ابتسامة الصدق والثقة. وابتسامة الشروق الواعد بدفء النهار الطالع وسط مجرة التجمد. يومها ختم حديثه إلينا قائلاً:

«يا أبنائي، نحن جميعاً، جنود هذا الوطن، وعلينا جميعاً، قادة وأفراداً، الواجبات نفسها، ليحقَّ لنا أن نأخذ أو نجني حقوقنا المبتغاة، لقد حدثتكم، واطلعتم على مجمل معطيات وملابسات المعركة. مالنا وماعلينا، ماحصل ويحصل، مانرجوه ومانبتغيه من استعادة حقنا في أرضنا، وربما نحن الآن، بحاجة لأن نأخذ منكم، لأنكم أنتم، بأيديكم، تصنعون قرارنا، أنتم بالتماس المباشر والتعامل المباشر مع العدوّ يحقُّ لكم إبداء الملاحظات وتقدير المواقف، وتقديم المقترحات. وأنا سأستمع إليكم، فمن لديه فكرة أو استفسارٌ أو رأيٌ، يمكنه أن يطرحه بسهولة، وسنناقشه معه ونرى مبلغ جدارته، نحن وإياه».

بدأت بعض الأيدي ترتفع، وكانت قليلة جداً، وكان الضباط يتحدثون عن قضايا تتعلّق باستكمال بعض العتاد وتعويض بعضه الآخر، أو طلب أنواع أكثر ملاءمة لظروف التعامل مع سلاح العدو وقدراته وتكتيكه.

وكان السيد الرئيس يجيب بالإيجاب، وهو متّسع صدراً وممتلئٌ أَمَلاً، ولقد بدا أنّ الجميعَ دون استثناء، واثقون من رؤية الرئيس، معتمدون على تطلعاته ونظراته الاستراتيجية والعملياتية في نجاح مَهامِّهم، مستجيبون لتوجيهاته استجابة المريد لصاحب الدعوة، وكنت أنا من بين هؤلاء. ولكن كان لي سؤالان يتردَّدان في صدري. قلت لرفيقي في السلاح الملازم الأول أحمد الخطيب: مارأيك بهذين السؤالين...،...؟ قال وهو يبتسم، هامساً:

السؤال الأول، يا جناب الملازم الأول، والمتعلق بالطيران الإسرائيلي وطرق وروده وقصفه وتحليقه وتَسَلُّقِهِ من جهة الشرق «أرض الأردن الشقيق» فيمكن معالجته محلياً. والسؤال الثاني المتعلق بالكتابة عن بطولات المقاتلين فأعتقد ألّا مكانٍ له هنا ويمكن أن ترسله إلى أية جريدة أو مجلة في العاصمة دمشق. كان الرئيس يجيل طرفاً فاحصاً فينا وهو المشهورُ بدقة الملاحظة وسرعة القراءة حتى قبل أن تكتملَ البياناتُ والمعطياتُ، أو تتوضحَ جهاتُها وينبلجُ عنها النور.

شعرت أنه لاحظ انكفائي جهةَ رفيقي، أحسستُ أنّ إشراقة وجهه تحمل إليّ رغبةً بالإفصاح عما يدور في خاطري دون وجل.

في الحق كنت متردداً، ولم أكن أريد أن أُثقل على القائد العام بأسئلة قد تبدو عادية لأول وهلة، إلّا أن أحداً لم يتطرّقْ إليها هنا في هذا الموقع، فهل أطرحها باختصار؟ كان السيد الرئيس قد بدأ يُشير بيده نحونا مشجعاً على السؤال.

قائدي المباشر لم تكن له رغبة في أن نثقل على الرئيس بأسئلة قد يكون سيادته أجاب عنها في سياق حديثه السابق إلينا كافة. غير أن إرادة طاغية سيطرت عليّ في أن أتحدث إلى الرئيس مباشرة في أمور تخص الجبهة والجيش والقتال، ولاتخصني أبداً، قاصداً أن أبعث أمامه مباشرة بشريحةٍ ناطقةٍ وصورة نابضةٍ عن المقاتلين في الميدان هنا، عن حضورهم الفاعل المتجاوب، عن التعامل المتزامن مع معطيات وتقلبات المعركة، وكأنك تردّ كفاً على أختها، مفصحين بلغة الجَسَدِ، ولغة الروح، عن الثقة بالنفس وبالقيادة الحكيمة للقائد، وعن الإيمان بالمقاومة طريقاً إلى الخلاص... إلى الوطن، إلى السلام... إلى الله دون أن يتسرب أيّ قدرٍ، ولو ضئيل من الوهن أو الونى أو الشك أو التخاذل إلى النفوس... وهذا

الأخير أمرٌ لابدّ وأن يشغلَ بال قائد كبير كحافظ الأسد، ولاسيما أن هو الذي يعرف، قبل غيره، بأن جيشه لاينازل إسرائيل وحدها، وإنّما ينازل كلّ قوى الشر والعدوان في هذا العالم، من الذين أنكروا الحقّ العربيّ في الأرض والحياة، وهبّوا لنجدة إسرائيل وعدوانيتها دون مسوِّغ واحد، وزجّوا بأنفسهم في خندقها العدواني السافر زجاً عضوياً دون خجل أو مراجعة نفسٍ أو مواربة.

حزمت أمري مستفيداً من تشجيع السيد الرئيس للراغبين في السؤال ورفَعت يدي ـ نعم، تلقيتها على الفور، أجاب السيد الرئيس بتلطف حكيم، وإشراقة مُلهَم.

ـ يا سيدي الرئيس. أنا لست من كبار العسكريين. كما هو واضح من رتبتي، وربما كان غيري، هنا في هذا الموقع أجدر مني وأولى بطرح هذا السؤال التاكتيكي. إنَّ موقعنا يا سيدي، وككلِّ المواقع لابد وأن يتعرض لخسائر. وهذه طبيعة الحرب أبداً.

غير أن بعض الخسائر لاتتعلق بالجاهزية القتالية أو بالجنود بقدر ماتتعلق بخطإٍ في بعض التكيكات الميدانية التي قد تبدو للوهلة الأولى هامشية ويمكن سدُّها بسهولة، وهنا يجب الرجوع إليها وتداركها لتفادي الخسائر ما أمكن.

وقرأت، على الفور، علائم الاهتمام، في محيا السيد الرئيس، بهذا السؤال، كيف لا وهو القائد العسكري الفذ، والاستراتيجي الكبير، والطيّار البارع الذي يعرف حجم أخطاء التكتيك.

ـ تابع يا ابني، مثل ماذا؟

سيدي، لقد تعرَّضنا لعدة غارات جوية معادية من جهة شرقي موقعنا، أقصد الأراضي والسهوب الأردنية غير الداخلة في خرائطنا وغير المحمية.

وكانت تأتي مستخدمة طريقة الطيران السّاف، فويق سطح الأرض، وماهي غير ثوانٍ حتى تحلّق فوق موقعنا فجأة. وكان يجب أن ندفع ببطاريات من صواريخ سام ٧ خارج الموقع، وباتجاه الشرق، لترفع لنا سقف الطيران المعادي حتى يمكننا التعامل معه بكفاءة أعلى، وتقليل الخسائر أو حتى انعدامها من هذه الزاوية، فنحن قد تعوّدنا، ومنذ أول الحرب على إفشال الطائرات المعادية تماماً، وإيقاع الخسائر برفوفها المطيَّرة.

ـ ملاحظة جديرة بالاهتمام يا ملازم أول. وبعد أن تحقق سيادته من هذه الملاحظة ممن يحيطون به من أركان الموقع. شكرني، ثم خاطب السيد العماد أول مصطفى طلاس وزير الدفاع وهو يبتسم:

ليكن للملازم أول مايريد. كلِّفوه مسؤولاً عن تشكيل من سام /٧/ يتوضَّع بحسب خرائط الموقع الميدانية وفي الأماكن المناسبة التي ترونها.

ـ وغيره يا ابني، هل عندك شيء؟

كان أحمد الخطيب يهمس لي بعصبية: كفى، كفى وكذا قائدي المباشر كزَّ على أسنانه من بعيد، في مواجهتي. معاتباً. غير أنني أحببت أن أثلج صدر الرئيس بشيء يعبِّر له تمام التعبير عن راحة المقاتل هنا، راحته المعنوية، كذا الجسدية، وأنا أعرف تماماً أن الرئيس توَّاق كي يعرف شيئاً حقيقياً، يلمسه لمسَ اليد مباشرة، وليس من التقارير أو الصحف أو النشرات الميدانية، عن حالة المقاتلين ومعاناتهم وانطباعاتهم الحيّة، وهو المقاتل الأول، صاحب التجربة الميدانية والجوية الأولى بتسقّط آثارها، لما لها من أهمية في قرار القائد، وفي رسم قراراته المدعومة بما يؤيدها على الأرض، لا المبررة بمنطق الذهن أو الفكر وحده. وهكذا انطلقت على السجية، وأنا من عُبّاد السجايا، ككلّ محبّ

للإبداع. أو مخاصرٍ للمبدعين، على الأقلّ. قلت مخاطباً السيد الرئيس من جديد:

ـ يا سيدي، أنا أكتب القصة القصيرة، منذ فترة، وقد هزّتني بعض المشاهد من صمود مقاتلي جيشنا البطل كما لم أهتز في حياتي، ولو أنني أكتب من الخيال المطلق لما استطعت أن أرسم لوحة مجسمة ناطقة نابضة كالتي عاينتُ، وشاهدتُ هنا، في مقاتلي هذا الموقع. وتعلمون يا سيدي. أن الأدب في طول الزمان كان رفيق الملاحم ونجيّها، يُسلّ كما يُسَلّ الحسام.

انفرجتْ، والله، أسارير الرئيس كما لم أرَها من قبلُ، إذن أكون قد بلغت شيئاً من غرضي الطيب النبيل، ألا وهو إدخال شيء من السرور على قلب القائد، ليس السرور السطحي كما يتبادر إلى ذهن طالبي التسلية والسّمر، بل لأنّ الرئيس أوّل وأولى من سيقدّر قيمة هذه الكتابة الإبداعية الميدانية ومدى إشارتها إلى راحة أعصاب المقاتلين وتفوّقهم على من يواجهون، ومبلغ ثقتهم بقيادتهم وسلاحهم وغرضهم، وهذا شاهدٌ يبقي راويةً على الزمان، بعد أن تسكت المدافع والطائرات، شاهدٌ للتاريخ، وللأيام، ناطقٌ مابقي الزمان وتوالى الحدثان...، وتابعت:

ـ وإذا سمحتم لي، أقرأ عليكم شيئاً منها، سيدي الرئيس.

ـ نعم إقرأ. ونسمع منك شيئاً.

بدأت أقرأ قصة «إفطار مضاد للطيران.. أيضاً» من مجموعتي ومذكراتي اليومية عن القتال، والتي تنام إلى جانب دفتر الغارات الجوية مستفيدة من عطر المعركة، وجاذبة الملحمة.

وكم كان سروري عظيماً عندما استرعت القصة انتباه القائد ونالت منه اهتماماً، وقد بدا جميع الرفاق الحضور وقد أصغوا بشغف إلى صورة

أحد المقاتلين المتشبثين بسلاحهم، في أعقد ظروف الاشتباك الجوي وتداخلاته. وأنا أحركها أمامهم، بانوراما خلابة من على السلاح المضاد للطيران، في مواجهة طيارٍ معادٍ معتدٍ أثيم، وعنيد.

كان السيد الرئيس هو أول من صفّق لي مباركاً، وقد شجعني على ضم هذه المذكرات والقصص إلى بعضها، وإخراجها في مجموعة متكاملة عندما تضع الحرب أوزارها، وتنضج القصص، وتستكمل شكل الأدب الحقيقي، الأدب المؤثر، الأدب المعايش للأحداث، المحتفظ بمائها ودمائها وحرارتها، لا المكتوب بطريقة التقليد والتصوير عن بُعد، نظيفَ اليدين من غبار الميدان، ذلك الغبار الذي هو كحل الفنّ وسيماء وجه أدب المعارك.

ثم وُضعتْ تحت تصرفي سيارة عسكرية لأطوفَ بها على مواقع أخرى في الجبهة السورية، بحيث أستطيع أن ألمس مباشرة، قصص البطولات، وأن أغطّ ريشتي في جراح الفداء والصمود.

وها أنذا عند حسن ظنكم يا سيدي، تريثتُ وأنا أنسج خيوط هذه المجموعة، آملاً أن أوقظ بحروفها، كلّما دعت الضرورة، أو طلب الشاهد، زئير دبابات التحرير في الجولان، وضجيج القنابل في قمة جبل الشيخ، وانحطام الحديد على الحديد، واندلاع النار في الحديد، صنيعَ دفاعنا الجوي الرائع المتين في معدن الطيران المعادي وقلاعه الجوية.

كما آمل أن تلقى هذه المجوعة، المنحوتة من أعصابي، شيئاً من اهتمامكم مؤكداً بقصصي على ناحيتين:

الأولى: كون حرب تشرين التحريرية وانتصاراتها الرائعة، ومداميكها التي لاتقبل الهدّ أو الخلخلة، اعتذاراً من التاريخ عن إخفاقات عربية سابقة.

الثانية: كون حرب تشرين التحريرية، جاءت بقيادتكم الفذّة، ردّاً صاعقاً على العدوان، مفاجئاً وغير متوقع، ورفضاً صارخاً للإستكانة للاحتلال والتوسع في أديم الأرض العربية، وفي تربة المشاعر القومية. وفي معارج الهوية الروحية للأمة العربية.

الكاتب

كلمات في المناسبة الوطنية الخالدة
لحرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣

ـ العماد أول مصطفى طلاس

ـ الباحث الدكتور أحمد عمران الزاوي

ـ الدكتور معن صلاح الدين علي

ـ وَهَجُ القرار: اللواء صلاح خضور

وفي ميدان القتال سجل القلم

مشاركة ساخنة أيضاً

حرب تشرين التحريرية التي قادها عظيم هذه الأمة، وصانع انتصاراتها، السيد الرئيس حافظ الأسد، كغيرها من المناسبات الوطنية والقومية العظيمة، حرّكت قرائح الكتاب والشعراء، وأطلقت العنان لأقلامهم لتجود بما يناسب عظمة هذه المناسبة التي تُعدُّ معجزة العرب في العصر الحديث. وكاتب هذه المجموعة القصصية التي عنونت بـ «البيت والدخان» هو جندي من جنود الأسد الميامين، ممّن كان لهم شرف المشاركة في حرب تشرين التحريرية، مع رفاقه جنود هذا الوطن، فأبلى فيها، كما أبلى غيره من المخلصين الشرفاء. وقد طبعت مجريات هذه الحرب وأحداثها بكل تفاصيلها في ذاكرته، وأبت الخروج منها ـ كيف لا والأعمال الفذّة ترفض الذاكرة إلّا الاحتفاظ بها، تنتشي عند استذكارها، ويملؤها الفخرُ والزهو عند الحديث عنها وذكر بطولاتها.

إن حرب تشرين هذه كانت المحبوبة الملهمة للقاص يحيى خضور. فيها خاضت قواتنا المسلحة العربية السورية الباسلة حرباً ضروساً بكفاءة

عالية، شهد لنا فيها العدوّ قبل الصديق، لتكون تكفيراً عن إخفاقاتٍ ونكسات مني العرب بها ردحاً من الزمن. ولتكون أيضاً برهاناً للصهاينة المعتدين الذي يغترفون من الترسانة العسكرية الغربية كل مايريدون، ويمدهم حلفاؤهم بالدعم غير المحدود، ويكفّون عنهم العقاب الدولي. وكما هو معروف فإنَّ الصهاينة أصحاب نزعة عنصرية عدوانية، فاقت النازية في جرائمها، ومازالوا يصرّون على تحقيق أحلامهم التوراتية المزعومة.

إنّ العرب مايزالون على عهدهم صامدين، لاتلين لهم قناة، ولايرضخون لمعتد أثيم. وإن أسطورة الجيش الذي لايقهر، لم تكن إلا خدعة، وفقاعة في الهواء، أطلقها الإسرائيليون لإرهاب العالم من حملهم هذه الأسطورة التي سرعان ماهوت بالقرار التاريخي الذي أصدره السيد الرئيس المناضل حافظ الأسد لخوض غمار هذه الحرب التحريرية. ومع الرصاصة الأولى التي أطلقت باتجاه القوات المعادية بالاشتراك مع الشقيقة مصر، كانت المفاجأة التي لم تكن متوقعة لإسرائيل ومن يشدُّ على يديها. وقصص هذه المجموعة دليل حيٌّ على ما بذله جيشنا من تضحيات وصمود واستبسال في مختلف جبهات القتال لاسترداد الأرض التي اغتصبها الصهاينة عام سبعة وستين وتسعمائة وألف.

إن صاحب هذه القصص من مثقفي هذا الوطن، وممن لهم الباع الطويل في قرض الشعر وكتابة القصة. لذلك جاءت قصصه مستوفية لعناصرها الفنية بأسلوب رصين وجزل، يفهمه كل قارئ لها.

وللأمانة، تعدُّ قصص يحيى خضور جزءاً من تاريخ هذه الأمة، وتراثها، من خلال الأحداث الحقيقية التي عاشها القاص وقام بتدوينها

ونقلها بأمانة وإخلاص، لتبقى حيّة في الأذهان والضمائر، تهتدي بها الأجيال اللّاحقة على لهب الحقائق السّاطعة التي صدحت بها هذه القصص. وعلى أريج وعبق الصور الأدبية الرقيقة، والإيحاءات المجنّحة التي زخرت بها، فجمعت بين الفكرة الهادفة، والموحية، وبين الصورة البيانية والإبداعية كأفضل مايكون.

العماد أول مصطفى طلاس
نائب القائد العام للجيش والقوات المسلحة
نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع

البيت والدخان

١ ـ هذا العنوان:

الذي وضعه الأديب المبدع الأستاذ يحيى خضور، لقصصه عن «حرب تشرين التحريرية» بعث في ذهني على الفور المثل القائل: لادخان بلا نار.

ففي حين تنكر الصهيونية وجود أيٍّ دخان من حولها، أو أية نيران، وأنها غير مرفوضة ـ لاقلباً ولاقالباً ـ نرى الوقائع غير ذلك تماماً في المحيط العربي الإسلامي الذي توضعت فيه، كنتيجة للمدّ الاستعماري الغربي الذي جاء نتيجة من نتائج الحرب العالمية الأولى، ونتيجة خروج تركيا من الحرب مهزومة مع حليفتها ألمانيا.

إن معنى كلمة: (هاييّت) هو البيت، ومعناها المملكة أيضاً. وهو اللفظ الذي يطلقه العبرانيون على مطلقَ تجمع لهم، غابرٍ عبر التاريخ القديم وذلك تعلّقاً بالهيبة التاريخية للكلمة، وتقليداً للشعوب والأمم العظيمة ذات العمق الحضاري. في يوم ما، استفاق سكان هذا البيت (المملكة) على دخان كثيف من حول البيت، لكنهم أنكرواأن يكون خلف الدخان أية نار، واليهود عموماً مشهورون بتحفظهم وتعنتهم ـ بل وتكلُّسهم حول مفاهيم أو قوالب عتيقة مغرقة في تحجُّرها، لكن العالم كله صحا على اندلاع النار تحاصر ذلك البيت الذي أُقيم/ بقرار استعماري مريب/ في عتمة من عتمات التاريخ العربي... وعلى أرض

فلسطين العربية... إنها حرب ٦ تشرين أول/ أكتوبر/ التحريرية/ عام ١٩٧٣.

ولقد بلغنا من وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة، إبان هذه الحرب خبر اتصال «هنري كيسنجر» وزير خارجية أمريكا حينئذٍ بـ «غولدا مائير» رئيسة وزراء إسرائيل في حينه، يحذرها تلك النار ويقول بالحرف: إسرائيل في خطر يا سيدتي.. وعليك.. عليك.. لكن السيدة مائير بدأت تمطّ الحديث معه، لكنه عاد وذكرها بأن الدقيقة الآن لها ثمن باهظ، غير أنها، وعطفاً على ماذكرناه آنفاً عن تعنُّت الشخصية اليهودية، وجمودها على قالب واحد، لم تصدق أنها في خطر حقيقي ـ هي ومملكتها لأول مرة في التاريخ الحديث «للبيت» المقام في فلتة من فلتات الزمان و/بقرار/ على عكس المألوف والنمطي في نشوء الدول المتدرج، عبر الزمان والمكان. ثم، ويا للعجب، تدهش السيدة مائير، وربما يغمى عليها، بعد سماع أنباء المعارك وتقدم الجيشين السوري والمصري ـ السوري عبر خط آلون في الجولان، والمصري عبر خط بارليف شرقي قناة السويس. وبعد ذلك تضع كتاباً تنحو فيه باللائمة على قادة الجيش الإسرائيلي، وتسمى الكتاب بـ «هامحْدال» أي «التقصير».

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ـ أو يذكُّر فإن وزير الحرب الإسرائيلي، موشي دايان، أجاب الصحفيين الذين سألوه في ٧ تشرين أول ١٩٧٣ إثر تقديم استقالته، عن مجريات المعارك، وكونها لصالح السوريين والمصريين، مدافعاً عن هزيمته بهذه العبارة التي حملت الكثير من الشوفينية والبهلوانية واللامسؤولية البشرية: «كم نصراً يتحمل الإنسان في حياته»؟!!

إذن هو كان على طريق الجنون والجنوح والخروج خارج السياق

الإنساني لولا أن تعيد حرب تشرين إليه صوابه، وحجمه الطبيعي، وعقله الذي كاد يطقّ، ويخرجه من الصنف الإنساني، إلى أصناف أخرى لاترى غضاضة في أكل لحوم بني البشر أو إحراقها بالنابالم، أو طمرها تحت الركّام حيّةً بدعوى النصر.

٢ ـ إن قصص تشرين العشرين:

هي مذكرات كتبها جندي تشريني رائع، وهبه الله إلى جانب الإحساس القومي العميق، والحس الإنساني الدفيق، ريشة خلابة استطاعت أن تغوص إلى قاع الوقائع، وأن تعرضها لوحاتٍ قدّمت بإتقان منقطع النظير، إقليم المعارك، وشرائح العواطف الإنسانية، وتعبيرات أجساد المحاربين، وهي تُلقي... وتتلقى... تختلج تشوُّفاً... صَبْراً.. عَرَقاً.. ألما، حزناً، ودماً حيناً؛ وغبطة عارمة، تشفياً... فرحاً حتى الثُّمالة، أحياناً أخرى. إنها أنموذج مميز من القصص لم أقرأ مثلها حتى الآن عن حرب تشرين.

ففي حين أن مؤلف القصة ـ أية قصة ـ يبدع شخصياته إبداعاً، ويصنع منها عجينة مطواعاً لأغراضه، وغاياته، وهياكله التي يشاء عرضها، فإن شخصيات قصص «البيت والدخان» جاءت من لحم ودم المعارك الحقّة التي أبدع الكاتب في طريقة الاحتفاظ بحرارتها، ودقات قلوبها، واستطاع أن يقذف في صدورنا ومسامعنا وضمائرنا، ألوان الصمود والبذل الإنساني، والتحمل البشري، وأن يبعث في أنوفنا روائح الأجساد المتفحمة بنيران طائرات ودبابات المعتدي الأثيم، تلك القلاع النارية المتحركة المبذولة بالمجان، دون قيد أو شرط، من مخازن السّلاح الأمريكي والتي لم تستطع أن تصمد أمام السواعد العربية السمراء التي كانت تحمل على الكتف سلاح الـ: آر ـ بي ـ جي المضاد للدروع أو قاذف الصاروخ

سام ٧ المضاد للطائرات المنخفضة، فدحرت بها فيالق الدبابات الصهيونية، وردّتها على أعقابها خزيانةً، أو محترقة بجنوها الصهاينة الذين جبنوا عن الخروج منها؛ كما ألْوَتْ بأعناق الأسراب المغيرة ومرّغت أنوفها بالتراب. إنها أحداث المعارك التشرينية التي عاشها الكاتب بلحمه ودمه، بعواطفه وأفكاره ورؤاه، بخوفه وإقدامه، بخشيته وجرأته، وبيقظة مابعد الحواس لديه. إذ أن الحرب ليست من الأحداث الذهنية كالتي يديرها الناس عَرَضاً في المقاهي، أو التي يُستطاع التحدث عن حقيقة المعاناة فيها خارج نطاق التجربة والفعل، الحسّ والشعور. والقاص يحي خضور، بهذا هو الشاعر الفارس العربي التراثي، من جديد.

إنه يحدثك عن «السوخوي» و«نجمة داؤود» وسقوط الطيارين الإسرائيليين في المظلات، ودبابة «السنتوريون» الإسرائيلية الضخمة، ويبعث أمامك الحياة متحركة على جبهة مشتعلة، فتسمع من جميع الجهات، هدير الطائرات، وقصف المدافع، وركز الصواريخ، وتشمُّ روائح البارود، وليس سواها من «هواء للتنفس» إذ ذاك، على حد تعبير القاص في إحدى مذكراته الميدانية.

٣ ـ إن رسالة الأستاذ خضور «من تحت الثلج»:

التي جاءت في آخر القصص أذابت بحرارتها وعواطفها جليد الأرض، فامتلأ سطحها بنباتات الزينة وأعشاب الحب، وصورت بأمانة، الجندي العربي وقد مازج مابين الواجب وعشق الأرض، وبين من هم على سطح الأرض «حبيبته وأهله» بنسب إنسانية شفيفة، فصاغ من هذا العشق الكبير تلك الرسالة ـ القصيدة «السمفونية» الرائعة عن الإنسان... الحب.. والحرب...

كلمة أخيرة لابدّ منها، لم أقرأ في حياتي عن المقاتل العربي أصدق ممّا

قرأت لهذا القاص، ولا أكثر تعبيراً عن هذا المقاتل، ولا أكثر إيغالاً في كفاءته المكنوزة، وفي عواطفه وأفكاره وتطلعاته وصبره، مما يعيد إلى الأذهان سالف الجندي العربي الشهم، ويبعث سيماءه السمراء الآسرة، وشجاعته غير الملوثة بالغدر والحقد الأعمى، من تحت الرّكام، ركام السنين، وادعاءات المعتدين.

١٩٩٧/١٠/٣

المحامي والباحث الدكتور: أحمد عمران الزاوي

وَهَجُ القرار

لقد ورد في إحدى مسرحيات الكاتب الألماني بريخت القول: «ويل للأمة التي لا تنجب أبطالاً»

فالبطولة تحفز الهمم الوانية، وتحرك الإرادات الراكدة التي غفت بغفوتها الشعوب، وهي لا ترضاها.

وإن أية أمة من الأمم لا تتيح لأبطالها القيام بوظائفهم النهضوية الفاعلة في أمر تقرير مصيرها وتحريرها من كبوتها فإن ذلك المصير سوف تفرضه الأحداث المستجدة أو مصالح الآخرين والغرباء. وفي التاريخ اليوناني القديم مرّ قول لأحد قادتهم الكبار جاء فيه «الحرب تخلق السّادة، غير أنها تصنع العبيد».

والحقّ فإن قائد حرب تشرين التحريرية ١٩٧٣ م الرئيس المناضل حافظ الأسد هو أول من تحمّل عبء المعركة وذلك بإعطائه قرار التصدي للمعتدين، وقرار الحرب هو العبء الأكبر الذي هزَّ ثقله كواهل كبار القادة عبر التاريخ لأنه يعني مصير الشعوب ـ الوطن والأمة.

ونحن صحونا بحرب تشرين، ولم نكن قبلها لنحسّ بأننا أسياد قرارنا. وبها انضممنا إلى السّادة الذين عناهم القائد اليوناني ذاك. وخلعنا أطواق العبيد التي حاول المعتدون أن يلفوها حول أعناقنا زمناً، وقد تمَّ كل ذلك بفضل عاملين كبيرين:

الأول: قرار القائد الأسد، وعلو همّته، بطولته، إرادته الخلّاقة، رغبة بالتضحية في سبيل تحرير ما سُلِبَ من الوطن. عزيمته الأكيدة في أن يستعيد الوطن هيبته والشعب كرامته وقوته وإرادته، وأن تسترد الأمة قرارها الذي كان قد صادره الآخرون فيما سلف.

والثانية: تجاوب الشعب والجيش مع قرار القائد في التصدي للعدوان المستمر على شعبنا ووطننا وأمتنا.

إن كاتب هذه المجموعة القصصية هو من جنود الأسد الميامين في حرب ٦ تشرين التحريرية، وقد كان يقوم بمهمة قائد سرية في الدفاع الجوي السوري المنيع، الذي سجّل له تاريخ الحرب مآثر فريدة في فنون القتال سوف تبقى دروساً للأعداء على مرِّ الأيام. ولست بحاجة إلى الإفاضة في ذكرها كون الكاتب قد جعلها لحمة قِصَصِه وسداها، كيف لا، وهي تحكي مذكراته ويومياته المأخوذة من دفتر الغارات الجوية الذي كان يتأبطه باستمرار إلى جانب السلاح.

إنني أعرف هذا القاص شخصياً، وعن قرب، وهو صاحب مجموعتين قصصيتين أخريين صدرتا له قبل هذه بدمشق، وهو بالإضافة إلى ذلك، شاعر.. ولكن شهرته كقاص وروائي غلبت على إنتاجه.

وقد أعجبت به ككاتب أيّما إعجاب، فهو يجسّد اللحظة النازفة من شريان الزمن أيّما تجسيد، وعنده القدرة على إحياء المواقف وبعث الدم في الأوصال، والحركة في مفاصل المكان، كما له القدرة على الاستبطان وتسلّمِ رسائل الحسّ والأعصاب من مرسليها، وإنك ستلمس بدون عناء يذكرَ محبة جنوده له وثقتهم برفقته وتجاوبهم معه.

وبهذا تكون مذكراته عن حرب ٦ تشرين أول التحريرية ١٩٧٣ م

وثيقة جوانية، قلَّ نظيرها، لإرادات المقاتلين ومشاعرهم، ورسماً ملوناً بالصور الناطقة لتعاملهم اليومي مع معطيات المعركة.

فإلى قائد المسيرة، وقائد قراري الحرب والسلم الرئيس المناضل حافظ الأسد تحية الإجلال والإكبار، وإلى جنود جيشنا الميامين وشهدائه الأبرار كل التقدير والاعتبار.

د. معن صلاح الدين علي

تقديم

... يوم تصادمت حتى الموت إرادات الرجال، وظهرت معادنهم.

عرفتُ الكاتب يحي خضّور قبل سنواتٍ قليلة، وللولهة الأولى تبيّنتُ فيه صفاء ابن الريف الأصيل... وطيبته، وقرأتُه كتاباً مفتوحاً... لاخبيئة فيه... ولاغموض، فقد جُبلت نفسه من شموخ جبال الساحل السوريّ... وصفاء سمائه، تشّرب قلبه عذب مائها.. وتنسّم صدره نقيّ هوائها.. وتغذّى عقله من رواء خضرتها... وأريج أزهارها.. وتغريد أطيارها. ومنذ نعومة أظفاره.. تضمّخت يداه بعطر الأرض... ولوّحته شمس الكفاح... وعجمتْ عوده غضّناً طريّاً، فأكسبته صلابة مبكرة... وخبرة ومعرفة بالحياة.

وعرفتُه من بَعْدُ، من خلال معايشتي له... وقراءتي لبعض مجموعاته القصصية السّابقة، الكاتب المثقف الكادح الملتزم بقضايا الوطن والجماهير... وهموم الفقراء والمعذبين، الذي ينحت الصّور... ويفجّر المشاعر من قلبه الكبير... وخياله الخصب الذي نَهل طويلاً من جمالِ الطبيعة البكر التي تربّى في أحضانها... ودرج في ملاعبها.

هذا الكاتب الذي، من خلال كل كتاباته، يؤرقه الهم الوطني والقومي... ويسكنه عشق الأرض حتى نقي العظم، طفلاً... ويافعاً.. وشاباً.. ورجلاً... ومربيّاً... ومقاتلاً، هو الذي يتقدّم إلينا اليوم بهذه المجموعة القصصية المتميزة «البيت والدخان»، التي نسج كلماتها من

سدى ملحمة تشرين الخالدة... ومن خيوط الحقيقة، لحظة بلحظة... وخلجة بخلجة. إنها نسيجُ مقاتلٍ عاش لحظة الحقيقة على أرض الجولان الطّهور، فكان له فضل السّبق والتّميّز في أنه لم يكتب من فراغ... أو من وحي الخيال... أو معتمداً على المراجع والوثائق والأخبار... بل كتب مجموعته، كما قال في تقديمه لها: «مجبولةً بتراب الجولان، مغمسّةً بدماءِ الشهداء فوق بطاحه، بعد أن غطّ ريشته في جراح الفداء والصمود... وكتبها عهدَ مقاتلٍ وفيٍّ لقائدِ حزبٍ وشعبٍ وأمّة»، ولهذا العهدِ قصّة أخرى.

عندما دعاني الصديق يحيى خضور للمساهمة بكلمةٍ في مقدّمة هذه المجموعة لم أتردّد لحظة... وأنا الذي كان لي شرف تشجيعه على الإسراع بإخراجها إلى النور، مؤكّداً له أنه يستطيع أن يباهي بها كلّ من سبقوه إلى الكتابة عن حرب تشرين لسببين اثنين:

الأول: أنّه كتبها بأعصابه... وبصدقٍ وبساطة يدعوان إلى الدهشة.. ومن خلال معاناته... وانخراطه المباشر في وقائع الحرب.

والثاني: أنه كان له شرف استئذان قائد حرب تشرين السيّد الرئيس حافظ الأسد في استكمال هذه المجموعة ونشرها فيما بعد حين تضع الحرب أوزارها.

لقد قيّض له القدر مقابلة السيّد الرئيس في قلب المعركة، أثناء زيارته للموقع الذي كان يقاتل منه العدوّ الإسرائيلي، وتسنّى له في تلك المقابلة التاريخية التي يذكرها الكاتب بكل الاعتزاز، أن يقرأ له إحدى قصص المجموعة، ونال ذلك إعجاب السيّد الرئيس... وإطراءه.

يقول عن تلك اللحظات: «كان السيد الرئيس هو أوّل من صفّق لي

مباركاً. وقد شجّعني على ضم هذه المذكرات والقصص إلى بعضها... وإخراجها في مجموعة متكاملة عندما تضع الحرب أوزارها».

صحيح أن الكاتب تريّث حوالي ربع قرن من الزّمان حتى وفّى بما عاهد عليه رئيس البلاد معتذراً له بقوله في مقدمة هذه المجموعة: «وها أنذا عند حسن ظنكم يا سيّدي. تريثت وأناأنسج خيوط هذه المجموعة، آملاً أن أوقظ بحروفها، كلّما دعت الضرورة، أو طُلِبَ الشاهد، زئير دّبابات التحرير في الجولان، وضجيج القنابل في قِمّة جبل الشيخ».

وكمال قال الكاتب في مقدمة مجموعته، المنحوتة من أعصابه ـ حسب تعبيره ـ: «لقد كانت حرب تشرين التحريرية حقاً اعتذاراً من التاريخ عن إخفاقات عربية سابقة».

«وكانت، تلك الحرب، بقيادة السيّد الرئيس حافظ الأسد الفذّة، ردّاً صاعقاً على العدوان، ورفضاً صارخاً للإستكانة للاحتلال والتوسّع في أديم الأرض العربية».

المجموعة تنمّ عن تمكّن بمعرفة خريطة جبهة القتال، وتكشف لنا قصصها عن ثقافة عسكرية واسعة... تشرح لك بثقة أنواع الأسلحة والذخائر التي استخدمها طرفا الحرب... وميزاتها، والمصطلحات العسكرية والفنية، وتقدير المواقف العسكرية... وسير العمليات على أرض المعركة..وبما يقدّم لنا تثقيفاً إضافياً... ويزجّنا زجاً محبباً في أجواء الحرب كما جرت فعلاً، ويجعلنا نستعيد دفعةً واحدة شريطاً طويلاً متّصلاً عن ذكريات تلك الحرب الماجدة... ووقائعها العظيمة. لقد كان الكاتب الراصدَ الماهر لأدق تفاصيل الأحداث، واستطاع ببراعة الكاتب المبدع من جهة، والإنسان المؤمن الملتصق بالأرض والقضية من جهة أخرى، أن يصوّر لنا حياة المقاتلين بمختلف شرائحهم... وأنماط سلوكهم.. وتنوّع

مشاعرهم. لقد قدّمهم لنا على أرض المعركة مجسّدين أمامنا في حالات الغضب والسرور... الهدوء والإنفعال، الحزن والقلق، وفي كلّ الحالات... كان القاسم المشترك الثابت بينهم: الروح المعنوية العالية... والإيمان بالهدف... والثقة بالنصر.

ولم ينسَ الكاتب، في جحيم الحرب وأتونها اللاهب، أن ينقلنا بذكاء... نقلة بارعة وموفقة... ومتسقة مع الأحداث، إلى خطّ الدفاع الأساس: الجبهة الداخلية، ويقدّم لنا صوراً حية ورائعة عن تماسك شعبنا ووحدته الوطنية الراسخة... والتفافه حول قيادته، وانتظامه الفريد خلف شعار:

كلّ شيء من أجل المعركة... كل شيء من أجل النصر. وحتى وجه الحبيبة المشرق الذي تماهى دائماً في ثنايا القصص... ومع صورة الوطن الغالي... واستبطنها، عشقاً... وحنيناً... واستلهاماً، كان الغائبَ الحاضر أبداً، يُمدّه بالصبر والعزيمة والحلم الجميل... والأمل! يقول الكاتب في تفسير ذلك في القصة الأخيرة من المجموعة التي عنونها باسم «رسالة من تحت الثلج»: إنني مقتنع تماماً بأن الذي يتقن الحبّ، هو نفسه الذي يتقن الحرب». ولم لا؟ أليس وجه الحبيبة هو وجه الوطن... وبيتها هو الوطن؟

صورٌ... وصور، حية... نابضة.. من أرض المعركة، تكاد لصدقها ودفئها وغناها... وبساطة عرضها، تشعرك بأنفاس الحرب تتردّد في صدرك... وبحرارتها تحيط بك من كلّ جانب، وبأسلوب ماتع وعبارة جزلة... هي في صفاء الينبوع وبساطته في آن.

كلّ ذلك، فضلاً عمّا قدمّه الكاتب في بطون قصص مجموعته من مساجلات سياسية وأدبية وتاريخية وفلسفية... وومضاتٍ إسقاطية ذكية

وموفقة، في أسلوب مبتكر مما يمكن أن أدعوه بـ «أدب الحرب» من السرد القصصي الممتع والمشوّق.

يقول العرب في أمثالهم: ليس راءٍ كَمَنْ سمعْ، وأناأقول عن مجموعة يحيى خضور الجديدة: ليسَ قاريءٌ كَمَنْ سمعْ. إنها قصص من لحم ودمّ، امتزجت بأديم الأرض.. وغبار المعارك، واختلطت فيها قعقعة السلاح بدويّ القنابل وأزير الطائرات، وتصادمت حتى الموت إرادات الرجال... وظهرت معادنهمْ.

إنها دعوةٌ حارة ومخلصة لقراءة هذه المجموعة المتميزة... فلا ترددوا في ذلك.

١٤ ـ ٥ ـ ١٩٩٧

بقلم اللواء صلاح خضور

مدير إدارة التوجيه المعنوي لقوى الأمن الداخلي ـ وزارة الداخلية

المذكّرات والقصص الميدانية

وجهي الضاحك
ـ ورقة من مفكرة مجند ـ

ـ أنت لماذا تضحك؟

ـ أنا لاأضحك يا سيدي وأعرف جدّيَّة الدرس العسكري، لكن وجهي هكذا... خلقة.

ـ هه، تدافع بشكل جيد، غير أنك نسيتَ أن ابتسامتك قد اتَّسَعَتْ، وأنا أكلمُك، ولذا، أنت معاقبٌ بالحرمان من النزول إلى المدينة من هذا المعسكر لمدة أسبوع كامل، عسى أن يُكسبك ذلك وجهاً جادّاً. وجهاً عسكرياً ينفع في الحرب. ثم التفت إلى عناصر الدورة محوِّلاً وجهه عني:

كنت مغتبطاً لأنني أمام دورة /مجندين متعلمين/ يفهمون بالإشارة، كما يُقال، ويستوعبون الموقف العام للوطن وأعداء الوطن، ويعرفون ألّا بُدَّ من أن يجدَّ الجِدّ، وبالهزل لاتُسترجَع الدِّيار، ولايُحمى حِمى الأمصار. ثم حوّل وجهه صوبي من جديد قاصداً إيايَ بالخطاب:

ـ «وجوه الصِّبيَة» لاتخدمنا كثيراً هنا. فعنترة مثلاً: الفارس المشهور لم تكن شفتاه تنفرجان عن ابتسامة في الميدان، وإنما كانتا تتقلصان، قل تكلحان عن الرُّعب، كما حدّثنا هو نفسه في شعره عن سلوكه في الميدان، قبل لقائه الخصم، وهذا ورد في معلَّقته المشهورة، هل أنا بحاجة لأن أذكركم بمنهاج الصف العاشر الثانوي في اللغة العربية؟ يا... رجال؟ طيب... ـ حسناً. قال عنترة. فيما قال، من معلقته:

ولقد حَفِظْتُ وَصَاةَ عمي في الضُّحى ... إذْ تقلِصُ الشُّفتانِ عن وَضَحِ الفَمِ

في حَوْمَةِ الموتِ التي لاتشتكي ... غمراتها الأبطالُ غيرَ تَغمغُمِ

..... ثم انتهى الدرس المقرر على السِّلاح.

في نهاية الأسبوع استدعاني قائد السرية إلى مكتبه متفحصاً انطباع الحرمان على وجهي، كما لابدَّ وأن يكون قد رسمه في مخيِّلته تقلصاً في عضلات الوجه، انشماراً في الشفتين، جفافاً للماء من المحيّا، بدلاً من ذلك الانتفاخ الفطري المتغافل. والذي يشكل تضاريس وجوه اليافعين من الفتيان قبل البلوغ. تلك الوجوه الخالية من آثار الهموم والمعاناة والتجربة، ومن الجدية غالباً.

فوجئ عندما وجدني منفرج الأسارير كعهده بي قبل العقوبة، ارتسم ذلك الاستنكار مليّاً على مجمل قسماته، رفع حاجبيه إلى الأعلى ثم هزّ رأسه أسفاً، التفت لفتة النمر جهة الحرس هاتفاً بلهجة حاسمة كنت أعرفها فيه عندما يغضب، تلك اللفتة الخاطفة التي كنت أحاول تقليدها مراراً في خلواتي لما فيها من جاذبيّة وأسرٍ مهيبين، وخاصة عندما يرقص شارباه بالرفض أو الغضب:

ـ ليأت جنديان يقتادانه إلى السجن لأنه لم يصبح رجلاً بعد، وعندما يكتسب وجهه عُبوسَ رجل يُقدَّم إليَّ لأراه وأنظر فيه، وفي أمر صاحبه.

بعد يوم وبعضه، وكان الشّهر قد أشرف على نهايته، نظر إليَّ جنديُّ الحرس، وكان جسيماً عاتياً كسنديانة دُهرية ـ ألفاني عابساً. سمعته يتمتم بذلك، فمنذ الصباح وأنا أرقبه يروح ويجيء في الممر، أحياناً يسرع، ويبطئ أحياناً أخرى، يتمتم فأنصت، ويَجْهَرُ فأتنحنح، يقول لي حيناً:

«ـ يا رجل. أنت محجوز لامحبوس».

«إعبس بقا وخلّصنا بجاه النبي».

«ـ أنت تحجزني معك!!!».

ثم ينكفئ على نفسه بعد ذلك ويبدأ يفنّد بصوت خفيض، لكنه مسموع، ديونَه، فيجدها تفوق مرتبه. فيعيد الحساب من جديد. ويجد ماوجده أول مرة. وهنا حسم الأمر:

ضرب على أخمص بارودته بكفّه الممتلئة، دوَّت الضربة دويَّ قنبلة، أعلن بصوت عصبي:

ـ لن أعطي أمَّ عمر آخر الشهر إلا نصف أجرة الغرفة. وإذا رفضت قذفتها بعبسة عسكرية. هكذا...

حطَّتْ عبسته علي وجهي بينما أنا أقلّده منذ بعض الوقت طرداً للملل. صرخ مستبشراً... لقد اهتدى صاحبي والحمد لله.

أخرجني من الحجز، اقتادني إلى قائد السرية، حيّا ثم نطق مزهوّاً:

ـ لقد اهتدى يا سيدي. وعلى يديَّ.

ـ عقّب الضابط بعد أن مسحني بنظرة سريعة من تحت جفْنيهِ المسبلَيْن.

ـ خذه وضمّه إلى الصف.

كان ترتيب الدرس في ذلك اليوم هو الرابع. حضر الضابط بعد لحظات ليعلمنا الدرس. قدم له الصف الرقيب المعاون. بادر الضابط يسأل بعض الأسئلة التي لها علاقة بدروس ماضية مرتبطة بتفسير استراتيجية العدو البعيدة المدى. قال:

ـ فرضية: احتل العدّو الموقع الذي على اليمين مع مشارف القرية المجاورة، لأنكم، وكما يعرف أغلبكم، إن لم يكن الجميع، أنَّ الأرض تهمُّه كثيراً، وأنَّه يبني أمنه المزعوم على احتلال مزيد من الأرض العربية.

والمطلوب أن يقترح كل منكم طريقة لدحره من المنطقة بقوات سريتنا فقط، وقد تكون هذه مهمة ميدانية حقيقية نتلّقاها في ظرف ما، فالحرب يا أبنائي، كَرٌّ وفَرٌّ. قال فاضل: إذا كانت قوات العدو أكبر من قواتنا فالأفضل الثبات في مواقع دفاعية مع طلب نجدة. والدفاع قد يستنزف العدو.

قال خلف: ولكن كيف احتل الموقع يا سيدي؟ وهل نحن نيام؟ لن نسمح له باحتلال الضاحية إلا على رقابنا.

قال ظافر: ننظم عملاً فدائياً. فنهاجم بمجموعات صغيرة صاعقة تفاجئ العدو وتقض مضجعه، فنوقع به المرة بعد المرة، فننهكه، ثم نُجهِزُ عليه في النهاية.

هزّ الضابط رأسه بالموافقة على خطط الجنود، لكني. أنا. لاحظت ذعراً عاماً يرتجف في كلمات رفاقي، لاحظ الضابط تململي. أحبُّ أن يسمع ماتحت لساني. وقد توضح ذلك في سؤاله لي خصيصاً، وكأن السؤال كان محضَّراً لاختباري وفحص جدِّيتي التي أصبحت موضع امتحان، قال:

ـ وأنت، ماذا تتصور؟ أم أنك غير قادر على طرح قضية جدّية، مسؤولة بعد؟ تنحنحت مرتبكاً، احمرّ وجهي و... انبسط.. وخانني».

ـ أنا يا سيدي. لا، لاأحب الإجابات والخطط المذعورة كالتي نطق بها رفاقي.

ـ وهل عندك خطط أفضل؟ يا.. ماشاء الله؟

ـ أنا يا سيدي أتصور... أ. أقترح أن نفتح كتاب تاريخ العرب، وأن نحفِّظ جميع فتيان المدينة ملاحم الفروسية العربية أوَّلاً بأوَّل، وعندما يحفظ الجميع الأناشيد، ويرددون بصوت جماعي، جماعي هادر، قصيدة /فتح عمورية/ لأبي تمام، أو قصيدة /الحدث الحمراء/ للمتنبي في سيف

الدولة، ينهزم العدوّ. لابدّ، آ. أقول:... يبدأ ينهزم.

غمغم الرفاق بالضحك المكتوم. قلْ المضغوط، وتراكمت مقاطعة كالغرغرة أو الغاز في حناجرهم. عقب إياس بعد استئذان الضابط. وكان إياس أكثرنا طولاً.

أهذا وقت القراءة وإنشاد الشعر يا سيدي بينما يلتهم العدوّ الأخضر واليابس في أرضنا، كالجراد؟

وأكمل علي بين يدي قائد السريّة، مبيّضاً وجهه على حسابي، متعمّداً إثارتي كالعادة، بأمزوحاته الموجعة والرائعة:

ـ بل أيٌّ مجنون يتصور إمكانية إخراج العدوّ بقصيدة شعر؟ بل بكل شعر الشعراء، عرباً وعجماً، في هذه المعمورة يا سيدي.

وتدخّل الرفيق ناصر /بعد الاستئذان/ محاولاً الدفاع عني، لكن بطريقة لاتخلو من الإيذاء غير المقصود.

ـ هو يا سيدي لعلّه يريد أن يبرز على حسابنا، ويظهر لنا أنه يَدْرُسُ في قسم اللغة العربية، مبروك يا أخي.

قطع الضابط كل تعليق بلهجته الآمرة، المعهودة، وقسماته السمراء المعبّرة وقال ممتعضاً، بل حانقاً:

ـ هل عندك حرارة يا بسّام؟

ـ كلا يا سيدي.

ـ هل نمت جيداً؟

ـ نعم يا سيدي. نعم.

ـ إذن نحن أمام.. رومل جديد، هات يا رومل. صبَّ ماعندك من نظريات قتالية. فمونتغمري لم يستسلم بعد ولم ينسحب.

كان ريقي قد بدأ ينشف في فمي. أحرّك لساني باحثاً عنه فلا أجد منه شيئاً، أنا الذي أوصلت نفسي إلى هذا الموقف. فاصمد ودافع إن كنت تستطيع. خاطبت نفسي وأنا مضطرب الأنفاس.

تنحنحتُ محاولاً تجميع ماتبقى من قواي، دار في ذهني أن أقول: يا سيدي. إنها محاولة ترويح عن النفس. زلّ بها لساني. وذلك بعد أن لاحظت أن إجابات رفاقي تطمس ذعراً، والمذعور لايصيب الهدف، ولابدّ من تبريد أعصابه، إن أردنا الفلاح له في مهمته.

«يا ربي أنا في مأزق، لا أنا رومل ولا أنا مونتغمري، مأزق حقيقي وقائد السرية لابدّ سيعاقبني على استطراداتي... وهو الآن يرصدني ويحصي عليّ، بالتأكيد بعد قليل سيقول لي: وبعدين يا نابليون أو هتلر ويُضحِك عليّ كلَّ السرية» ناجيت الله وأنا أنظر إلى الأفق.

تنهدت. «أخّ». لم أقرأ شرّاً في وجه قائدي. بل ربما لمحت ظلال ابتسامة.

وقرأت بين شفتيه المقولة التي طالما حاول ترسيخها في أذهاننا: «أفضل طريقة يا شباب للدفاع هي الهجوم، وهذا ثابت ميدانياً وتاريخياً يا أبنائي».

إذن لأتكل على الله. ولاأنسحب، بل أتابع الهجوم مؤكداً نظريته القائد التي لاتخطئ... نظرت في وجه قائدي:

- اح، احم، يا سيدي، وأصبحت كل العيون منصبّة: عليَّ الآن.

أقول معتمداً على مطالعاتي عن الحروب، والاحتلال، والمحاضرات، إن الاحتلال لايكون للأرض بقدر مايكون للإنسان الذي على الأرض، ويمكن أن نقول: إنسان محتل، وليس أرضاً محتلة.

فإذا لم يُحتلّ الإنسان تبقى الأرض محررة ولو ربض فوقها العدوُّ ردحاً من الزمان.

كل قوة قادرة قاهرة غازية لاتعتبر احتلالها نهائياً ما لم تستطع اقتلاع الشخصية في الأرض المحتلة من كامل ممتلكاتها أو مخزونها الفولكلوري، والاجتماعي، والأدبي، والعاطفي، والفكري، مابقي الشعب يغني أغانيه القديمة، ويرقص رقصاته التراثية، ويسمي ذريته بالأسماء المعهودة، ويروي حكايات الأجداد بحنين وتقديس، فهو شعب غير محتلّ ولو كانت أرضه محتلة يا سيدي.

هزّ قائد السريَّة رأسه مستطلعاً من جديد:

ـ هل يُفهم أنك تتساهل بالأرض يا بسّام؟

ـ كلا يا سيدي، أبداً. ولكن لاأستسلم، ولا أفلس ولا أقنط.

ـ أعندك بعد ما تضيفه؟

ـ نعم يا سيدي، بعض الشواهد: دخل التتار ثم الصليبيون ثم الإفرنج بلادنا، ثم خرجوا حاملين معهم خزيهم، ويدخل الصهاينة اليوم وسيخرجون كما خرج أسلافهم من المحتلين والغزاة.

ـ لكن هناك أوَّليَّات يا بسام، يجب عدم التساهل بها، فجامعتك مثلاً غير المحمية جيداً من قصف الطيران المعادي، أو صواريخه، أو مدفعيته، تتهدم فوق رؤوس روادها في لحظات، صحيح يا بسام؟ وتتحول من جامعة إلى مقبرة في غياب المدفع والرّامي والمذخِّر وعامل المسافة.

ـ صحيح يا سيدي كل الصحة، إنما على الجندي ألّا يتساهل كذلك بالزوّادة التاريخية، خبز الأجداد الملحمي، ليدرك أن العزائم تتناسل كالكائنات الحية، وأن الصوت المجلجل للتاريخ العربي سيبقى صداه يتردد عبر العصور، ولن تقوى كل مدافع الدنيا على ابتلاع هديره. وأعتقد أن أول مهمة للمعتدين هي أن يجعلونا ندير ظهورنا لتاريخنا، أو نتساهل فيه.

بدأت تنفرج على محيّا الضابط ضحكة عريضة تبرق تفاؤلاً، حتى بدا لي وكأنه ارتاح جداً، وإذا تابعت تخيلاتي قليلاً قلت: هو يُشعرني وكأنني أتممت الدرس الاستراتيجي المقرر الذي كان قد بدأه. على حين كنت أمسك أعصابي من عاقبة سماحه بهذا الاستطراد الذي بدا لي في البداية ملغوماً، فهل يمكن تصوّر ضابط /قائد سرية/ ديمقراطياً إلى هذا الحدّ، بحيث يتيح للمتدرّب التحدث ويتحوّل هو، الآمر، المتفهم لكل شيء قلته سَلَفاً. إلى مستمع؟

كم مرّ عليه من أمثالي. وهل هو بحاجة إلى معلوماتي... هذه؟ لكن كم شعرت أنه بالقرب منا، وأن المسافة معدومة بيننا وبينه وهو ينصت إليّ بأبويّة أخّاذة في هذه المرة.

ـ لابأس. لابأس. جميل، اختتم الضابط الفذُّ المهيب البعيد النظر، استطلاعاً وجدارة، فهماً وشجاعة وأخلاقاً، ثم عقَّب أيضاً:

ـ اسمعوا جيداً «وقد كان نابليون، يا أبنائي الشجعان الواثقين من قدراتهم ومستقبل وطنهم العربي، فيما قرأت عنه، يعتقد بنجاح المعركة عندما كان يسأل بعض الجنود عن حاله، لاعن المعركة أو السّلاح قائلاً له قبل المعركة:

هل أنت متفائل، وهل تعتقد بأنك محظوظ؟

ويجيبه الجندي. نعم أنا متفائل. وأعتقد بأنني سأكون محظوظاً. ولابأس يا بسّام. «يبِّضْتَها هذه المرّة». ثم انتهى الدرس المقرر. وهكذا وكما تلاحظون... استطعت أن أحتفظ بوجهي ضاحكاً.

بسام

حزيران ١٩٧٣

طيار السوخوي ٢٠

قبل أول ضوء من النهار، كان كلٌّ من في القاعدة الجوية المتقدّمة في حالة الاستعداد الكامل: لباس الميدان يلتصق بأجساد الجنود، الخوَذ الفولاذية اتخذت عروشها على الرؤوس، الأسلحة الفردية، وجعب الذخيرة، شُدَّت إلى الأكتاف فصنعت دروباً غائرة في الأردية الخارجية، أجهزة تنقية الهواء «الكمامات» مختبرة ومعدّة، وكل الجنود قد علّقوها في أعناقهم. القطع الاحتياطية المرافقة لها جاهزة، كذا القطع الخاصة بالإسعاف السريع:

هذه حقن يأخذها الجندي ضد شلل الأعصاب، تلك حبوب لاجتياز المناطق الملوثة ذرياً. وجرثومياً وكيميائياً، هذه أمبولات للإنعاش، وتلك قطع ملحقة من أردية ذرية وقفازات وسراويلَ وأحذيةٍ مشابهةٍ في الغرض.

قبل طلوع الشمس وصلت أطعمةٌ خفيفة محفوظة، ضمن علب، كانت الأوامر تقضي بأن تُحفَظ مع حوائج كل جندي حيثما كان، بعد ذلك وُزِّعَ طعام الإفطار العادي: الشاي والزيتون وخلاصة اللبن بالزيت والخبز العادي. الفارق الوحيد بين إفطار اليوم وإفطار الأيام الخوالي أنّ تناولَ الوجبة اليوم تمَّ على السلاح، وليس في المكان الآخر المعتاد.

فجأةً، نقل إليَّ الهاتف أمرَ الاستعداد لفتح النار، حيث يُحتمَلُ تدخُّلُ طيران العدوّ في أية لحظة.

سألني الرقيب كاسوحة قائد الطاقم الأول:

ـ مالسرُّ في ذلك سيدي؟ وهل سيشنُّ الإسرائيليون علينا عدواناً؟

ـ تعلم يا رقيب أنّ الجيش السوري يقوم بمناوراته السنوية في هذا الفصل، وقد يحلو للعدوّ أن يسيء إلى ترتيب هذه المناورات ونظامها.

ـ إذاً تكون الدروس موقوفة اليوم؟

ـ إطمئن، لن يسيل عرقك اليوم في تدريب الجنود. بدأ الرقيب يغمغم بأغنية لفيروز: عالهدى مشية حبيبي عالهدى...

ـ حافظ على أعصابك. وأجِّل ألحانك الآن، نطقت محتدّاً، وانتبه إلى مراقبة قطاعك الجوي،.. الحبيب يمشي عالهدى، أما الطائرة المعادية فتزمجر كالعفاريت، وتلعن الأنفاس... ربّما.

ـ حاضر سيدي. أجاب الرقيب بهدوء وانضباط مبرراً غلطته... لاشعورية يا سيدي، والله لاأعرف كيف...

وجدت له العذر في /علم النفس/ حيث تظهر على المحاربين تصرفات فائضة وغير منضبطة، وقد كان الرقيب يدرك جيداً جوَّ المعركة من مقدماتها، وبالنظر لقرب طاقمه القتالي من قيادة القاعدة.

في الساعة الثانية عشرة تلقيت إعلاماً بالهاتف الميداني عن تمرينات ستقوم بها طائرات «سوخوي ٢٠» الصديقة فوقنا، وفي جو القاعدة الجوية التي كلِّفنا بحمايتها وبالمحافظة على نشاطها الجوي وإمكانية تدخلها السريع في جبهة الجولان. وهذه الطائرات قاذفة مقاتلة، أسرع من الصوت، لكن لم يسبق لجنود سريتنا معرفة معلومات كافية عنها. وكانت هذه الزيارة فرصة طيبة للتعرف إليها، وتمييزها من قبل جنود الموقع عموماً.

جاء أمر قيادة العمليات:

ـ راقبوا الطائرات من طراز /سو ٢٠/ أثناء التحليق والطيران والهبوط.

دعوا رجالكم يتعرفوا نقاط التمييز فيها بشكل جيد.

ـ حاضر سيدي. عُلم.

نفَّذت الطائرات من طراز /سو ٢٠/ تمريناً في الجو، ثم بدأت الهبوط، الواحدة تلو الأخرى: إنّها رشيقة حقاً. صوتها راعد عميق. لكن فيه ألفة، أحسسناها هكذا. أجنحتها ضيقة طويلة مندفعة إلى الخلف. صفق الجنود للطائرات، لقد نالت إعجابهم بمرونتها على إتساع سطوح هيكلها جملةً.

في الساعة الثالثة عشرة والنصف من اليوم ٦ تشرين الأول /أكتوبر/ ١٩٧٣م. أقلعت هذه الطائرات مثنى مثنى جهة الغرب، واستطاع جنودنا أن يرقبوها أثناء الإقلاع، وازدادت ثقتهم بها بعد أن رأوا قصر المدة والمسافة المبذولتين لجعلها في الجو.

قال أحد الجنود ممازحاً:

ـ مع السلامة يا... ست، الضيف عندنا لايبرح قبل أن يشرب الشاي على الأقل؛ لكن وين وين ماشاء الله؟

أجابه قائد طاقمه هازاً رأسه:

ـ ذهبت في مشوار صيد وستعود عطشى، حضّر لها كأساً من منقوع الشاي، ولاتنسَ نصيبنا.

قال الرامي معقباً:

ـ لاتنسَ أن تهيئ كأساً من السمّ الزُّعاف للطائرة المعادية أيضاً.

ـ طائرة معادية؟!!!

تدحرجت الكلمة على أكثر الشفاه في السرية، فالجنود قد تمرسوا طويلاً بالطبيعة العدوانية لإسرائيل. ورشحت أكثر الوجوه بغيوم البارود والنار.

تكرر أمر عمليات القاعدة برفع درجة الانتباه والحذر في جميع بطاريات الدفاع الجوي في الموقع. كانت إجابتي وحركة يدي على الهاتف عصبيتين معاً.

بعض الأمور تملي نفسها غريزياً، وتبدو أقل حاجة إلى التعلُّم. كيف يتسنى لك أن تضع جنودك في حالة قتالية بدءاً من موقف تدريبي؟! إن أحداً لم يوقن بعد يقيناً قاطعاً بهجوم جوي معادٍ، لأنَّ القطعات تنفذ مناورة، ولكن جندياً واحداً لايستطيع استبعاد هجوم معادٍ دون أيِّ مسوغ، لأنَّ العدوّ لم يحتج في تاريخه إلى مسوّغات. الأمر يحتاج منك إلى حكمة بالغة، إشارة واحدة منك، إشارة بارعة، تستطيع أن تستنفر كل الجنود أكثر من خطاب حماسة شرط ألّا توحي الإشارة برعب فتصنع عندها دعاية لجيش العدو وليس لجيش الصديق، تذكرت عندها كيف تستثير الأسود كلَّ قواها عند الهجوم ولكن يبقى منظرها مستبشِراً، ومريحاً، يوحي بكثير من الثقة بالنفس، إن مخزون الذاكرة ليس بيدك أن تتحكم به مثل تحكمك بحنفية ماء، أو مؤشر راديو، وتحسُّ بأن الذهن أصبح يعمل بضجيج أكثر من المعتاد ليقدِّمَ إلى الواجهة، وعلى السحنة الشيء الأكثر فائدة وجدارة لك وللآخرين من شركائك في المهمة.

لم أعد أسمع أية همسة. لانأمةَ. لاحركةَ. ألمح كل العيون تمسح الأجواء. «الآن أصبح جنودك مؤهلين للإشتباك» خاطبت نفسي.

وردني أمر مقتضب حادٌّ وسريع:

ـ الأسلحة كلّها ملقمة تلقيماً نهائياً ومعدَّة للإشتباك مع طيران العدوّ. طائرات /السو ٢٠/ ستهبط ثانية عندنا. يحتمل أن يلحق بها طيران معادٍ. شددوا المراقبة. كونوا على أُهبة الاستعداد.

ـ حاضر. عُلم سيدي.

أعطيت الأمر، قل كررته على جنود السرية، أصبحت الأسلحة جاهزة للرمي بغمضة عين حيث ارتفع صوت رنين المغاليق عند إحكامها على مؤخرات حجرات الانفجار في المدافع والرشاشات، إنه رنين مألوف في ساحات التدريب. لكنه أوقف شعر الرأس هذه المرّة، ضغطة واحدة على دوّاسات الرمي وترى وجه اليوم قد تبدّل أيّما تبدّل.

شيءٌ من هذا لم يحدث حتى الآن، ماحدث هو الموعد فقط، إن كان بالإمكان اعتبار الموعد حدثاً، وفي اللحظات الحرجة يشعر المرء أنه وحيد مع أنه محاط برفاقه.

هناك عدة حركات ثانوية، لاحاجة لها وغير ضرورية، أو ذات فائدة أصبحت تندُّ عن بعض الجنود: كرفع الخوذة وإعادتها عدة مرات لايمكن تفسيرها إلّا بالاعتماد على علم النفس.

صرخ المراقب الجوي للسرية:

- طائرات مُ، طائرات - تنا سو ٢٠.

- تابع المراقبة. كررت عليه القول.

فُتحت النارُ من أحد الرشاشات الرباعية الواقعة إلى يميني. بحنق صرخت بقائده.

- أوقف الرمي. هذه طائرات صديقة، من أبلغك أمرَ الرمي؟

- عطل فني يا سيدي.

- أوقف النار بسرعة البرق. هذه طائراتنا.

- حاضر.

كانت طائرة /سو ٢٠/ ترفُّ بجناحيها الطويلين فوقنا، ولمحض المصادفة غير السارّة، أتت من اتجاه الرشاش الذي أصابه عطل فني طارئ.

فأخذ يرمي دون تدخّل من أحد، وربما ميّز أكثر الجنود عدة طلقات تمر من فرجة مابين الجناح والجسم من جهة الذيل، بدأ الطيار بالارتفاع الحاد ليتحاشى الإصابة المؤثرة من جهة، وليبرز لنا معالم طائرته بوضوح من جهة ثانية.

توقف الرمي غير المقصود. تنهدت وقلت: الحمد لله. شكراً لمهندس الطائرة الذي عمل حساباً لأخطاء هذا الرشاش فصمم الأجنحة على هذا الشكل الضيق المنسحب، كما شكرت الطيار السوري الذي أتقن المناورة.

هبط الطيار من الجهة الثانية للمهبط بسلام.

كانت تلك هي الطلعة الأولى للطيران السوري، وبالعين المجردة استطعنا أن نرى الحرائق والدخان الهائل يتصاعدان من مرصد «جبل الشيخ» الذي ينتصب قبالتنا وكان راديو دمشق يعلن: في تمام الساعة الرابعة عشرة إلا عشر دقائق «تقوم قواتنا بالردّ على مصادر نيران العدو الذي بدأ الرمي باتجاه قواتنا على طول خطوط الجبهة السورية في الجولان، كما بدأ بمهاجمة المرافئ المصرية على المتوسط بينما كانت إذاعة /مونت كارلو/ تعلن:

في هذه اللحظات تتم أجرأ عملية عبور للجيش المصري لقناة السويس شرقاً، كما تتم أجرأ عملية اكتساح للجيش السوري للمواقع الإسرائيلية المحصنة في الجولان.

ونطق أكثر الجنود: إنّها الحرب.

أزعجتني الخطيئة الميكانيكية للرشاش الرباعي المضاد للطيران المنخفض، قلت في نفسي: إرادة الإنسان كفيلة بإصلاح الأمور، غير أنه لابدَّ لبعض الأقدار أن تلعب لعبتها برغم كل تقدم تقني، وعمر الأقدار أسبق بكثير من عمر السلاح. والإنسان مشبع بها منذ القديم، ولايمكنه أن

يطرحها من مخيلته. وكثيراً ماساعدته على إعادة التوافق مع الحياة، قد يكون الجندي ليس المسؤول عن العطل الفني، ولكن إذا تكررت الأخطاء كان الغلط في الإنسان وليس في الأقدار...

فيما بعد قابلت الطيار الذي جرت له الحادثة فوق موقعنا في الاستراحة. وكان قد عرف اسمي قبل أن أقابله أنا. وذلك كان بسبب من سيرة الحادثة ودفاع قائد الموقع، ابتسم بودّ ابتسامة عريضة قائلاً:

أنا النقيب الطيار... بدر، لقد حييتموني أمس بحرارة زائدة على المألوف يا أخي... شكراً. لكن لم تذكروا القول: ومن الحبِّ ماقتل؟

ـ بأي لغة يعبر السلاح عن حرارته لمن دمَّر مرصد جبل الشيخ المعادي وخاصة حين يكون ذلك المدمِّر طياراً في الجوّ، ونحن على الأرض؟ أجبته ممازحاً معتذراً.

لم أجد في فمي دفاعاً مقبولاً أكثر من هذا، غير أني لم أكُ راضياً في قرارة نفسي عن ذلك الخطأ الفادح، لكنني شددت على يد الطيار السوري مهنئاً إياه بالسلامة ـ محاولا أن... قطع عليَّ الكلام وضحك بتسامح ظاهر وكأن شيئاً لم يكن.

٦ تشرين الأول ١٩٧٣

نجمة داود تدخل حمّاماً حاراً

كانت أشعة الشمس محرقة، وكان التراب يشعّ سخونة تُلهب الوجهَ، فالمنطقة دون أشجار أو أي غطاء نباتي، الحجارة السوداء المتناثرة من حولنا ترسل أشعة لم أعرفها فيها من قبل. مع أني أواجهها منذ مدة. صباحاً ومساءً، وظهراً كذلك. هي سوداء في الغالب ومع ذلك أراها تبرق كحد النصل الأبيض، رائحة الشيح البري تثير فيّ شعوراً مبهماً، ليس مرفوضاً، لكنه ليس مقبولاً، في الأفق يحوم طير «أبو سعد» الأبيض المبرقع بالسواد بهدوء كسابق عهده، يعلو ثم يهبط، يصنع تهوية لطيفة لنفسه، لم لا وله هذان الجناحان الطويلان اللذان وُهبا له، أو ربما بعمله هذا يراقب صيداً أرضياً ويستأنسه حتى لحظة غفلته حيث ينقضّ عليه، كم مرة كان فيها هادئاً حتى الثبات في الجوّ، وماهي غير ثوانٍ حتى ينقضّ ويخرج محلّقاً وبين حدّي منقاره أفعى متدلية، أو فريسة أخرى. اعتدنا أن نراه على هذه الحالة في الأيام الحارة.

الكلاب حول المعسكر أخرجت ألسنتها الحمراء حتى آخر طول، وهي تلهث بسرعة في عملية تبريد واضحة، بينما هي تهرول من مكان نفايات إلى آخر، العصافير البرية صامتة لاتسمع لها صداحاً، هي الآن تتفيّأ في ظل نباتات الشيح الواطئة.

نحن، ومنذ أول ضوء في حالة الاستعداد القصوى، مكلّفون بحماية القاعدة الجوية من ضربات الطيران المعادي وصواريخه البعيدة المدى،

ننتظر غارة جوية معادية ينفذها سلاح الطيران المعادي بفارغ الصّبر، حيث أعلنت إذاعة جيش العدوّ أنها ستخرج هذه القاعدة خارج المعركة، أو أنها أخرجتها، وكل ذلك كان يدلّ على تضايق أسطولها الجوي من هذه القاعدة المتقدمة التي سرعان ماكانت تهبّ طائراتها للإقلاع السريع معترضة طيران العدوّ، منزلةً الإهانة بتكتيكه المبني على المباغتة والكتلة. باعطة هيبته[1]. بضع طائرات صديقة تحوم فوقنا، مستعدة لتعضيد دفاعنا الجوي، التلال المحيطة بالقاعدة رؤوس موالية تشرئب إلى الأعلى حتى لكأنها تنذر: الغادرون قادمون، فويق الأرض، بين الظلال، وتحيت مستوى التلال.

جنودنا الآن ليسوا أقلّ تنبهاً وحرارة، يستندون إلى حديد مدافعهم الجاهزة للتدخّل. هل كل شيء هنا أهاجه الترقّب، وتُرَّةُ الانتظار وهل تشارك الأشياء والأدوات أصحابها مشاعرهم، وتظاهرهم عن عمد وإصرار؟ لم لا. والمصير واحد!!

ـ انتبه يا رقيب برجس، راقب الأفق الشرقي للقاعدة.

ـ كيف حال مدفعك المضاد يا عريف عاطف.

ـ وأنت يا نذير، تحكم بالرمي جيداً، كعهدك في التدريبات والمناورات. ولاترمِ إلا عند وجود الهدف المعادي في المدى المجدي للسلاح. دقق التسديد.

لم تكن هذه التعليمات البسيطة غير محاولة في الدردشة في قالب قيادي فحسب، وذلك بقصد كسر جدار الانتظار والصمت الذي طال على المقاتلين حتى أمضّهم. أن تنتظر هدية، حبيبة، فأمر فيه نظر، أما أن

(١) ـ بَعَطَ الذبيحة: مدّها على الأرض للذبح أو ذبحها.

تنتظر قنبلة خرقاء فأمرٌ مختلف!!...

عيون الجنود مفتوحة على آخر سعة، تدرك ذلك من وضعية التحديق التي اتخذتها، أفواه مدافعهم التي تلوب نحو الأعلى أو الأفق، وجبتها اليوم من السماء، من يدري مِمَّ ستتكوّن؟

أسمعُ الإنذار بالسلكي من غرفة العمليات: أهداف معادية جوية، ظهرت من جهة الجنوب.

أبلغت الإنذار لجنود السرية الشجعان، توجه قسم منهم بمدافعه جهة الأهداف المعادية، وبقي قسمٌ، بتكتيك متفق عليه فيما سبق، تدريبياً، يجوب بقية الجهات. لأن العدو مخاتل ومناور فظيع.

صوت باللاسلكي، سرية الملازم١ نوفل، البعيدة، تشتبك.

لقد كان زمن الإنذار قصير جداً، قلت في نفسي،

هدير المحركات يمزق الأجواء صريف القنابل الصاروخية يصمُّ الآذان، انفجارات وحجارة تتطاير في كل اتجاه، أتربة ورمال ودخان أسود وأبيض، حرائق تشوي الحصى، ركز قوي يهزّ الأرض، تحاول أن تتبين عدوك أثناء الغارة المفاجئة فلا تستطيع، لزمن ثانية الآن قيمة سنة ضوئية.

ـ حاولوا ألّا تفرغوا قذائفكم في الهواء جزافاً يا رجال.

لكنني أعطيت أمراً مخالفاً للرشاشات الرباعية التي أصبحت تسعل سعالاً متواصلاً في هذا السّديم وفي كل اتجاه بغية تغطية سماء القاعدة، ورفع سقف الطيران المعادي إلى المدى الذي يمكن فيه للمدافع الرادارية والصواريخ أن تتعامل معه بما يليق به.

عملها أبناء صهيون هذه المرة، أي تكتيك شيطاني استخدموا. وأي تشويش استعملوا؟ وأي تمويه خبيث اتبعوا، وأية قمصان جنٍّ لبسوا؟

ولكن لماذا كل هذه العشوائية في قصفهم؟ ليست كل أرض الموقع بحاجة إلى قنابل. أعرف أن الطيار الواثق من نفسه يعرف هدفه ويتناوله متفرداً به.

كنت أحدّث نفسي وأنا أجوب السماء العاصفة بنظري.

صوت باللاسلكي من غرفة العمليات:

ـ طائرات فانتوم وسكاي هوك معادية.

إذا لم تستطع الطائرات المعادية اختراق حزام الدفاع الجوي المتراتب مع القاعدة فلا فلاحَ لها في التأثير على القاعدة مهما تطاير التراب وتفلّقتْ الصخور، أعرف ذلك جيداً. لكنني أريد أن أواجه نجمة داود على بطن طائرة الفانتوم. وجهاً لوجه. حيث لم أرها إلّا على صفحات المجلات والكتب. إنها المناسبة.

قالوا: إن النجمة كبيرة مزهُوّة، وقالوا: بل الطائرة كلها نجمة. وكم قالوا: إن الذهب مستخدم في أجزائها الدقيقة وأسلاكها.

ستبادر الطائرات المعادية بنثر هباتها فوق سماء القاعدة، بدون شك، فهناك مراقبة رادارية يراقب بها العدو طياريه، وتنفيذهم، ناهيك عن الصندوق الأسود المربوط في بطن الطائرة والذي يعمل تلقائياً، والذي هو الشاهد الأكيد على الطيار وتنفيذه لمهمته أو عدم تنفيذه.

طرّ ر ر طب ـ طف ـ تررر ـ طق، طرّر،... ط ط ط ط...

ـ نحن نشتبك مع الطيران المعادي. بلاغ إلى العمليات من كل السرايا. سماء القاعدة نيازك من شهب ملتهبة بين صاعد وهابط وكأنها أصبحت حمّاماً للشياطين.

حظك يا أبو الحظوظ، كن مع الله ولاتبالِ، نحن ندفع الشرّ عن

منازلنا، «نحن لانريد الشر والعدوان، لكننا ندفع عن أنفسنا الشر والعدوان»[1].

في فجوة نيّرة قليلاً بين السّخام ميزنا طائرتي فانتوم بوضعية الاقتراب أو التقرب من سريتنا، متتابعتين، منفخضتين، متريثتين، كأنهما في وضعية لصّين يتحفزان للسطو، خفّتْ جماعة الرشاشات الرباعية المضادة للطيران لاستقبالهما وذلك بحسب قواعد الضيافة المرعية عند العرب. حيث تُبعَثُ الرُسُلُ قبل أن يظهر مولى البيت الكبير على الزائرين. ارتفعت الطائرتان إلى أعلى، نجمة داود تبرق فعلاً.

ـ افتحوا النار يا شباب. ومن كل عيار. نار. نار. نار. ناولوها يا شباب. الله معكم. اليوم يومكم، أحسنوا الضيافة. أنا واقف معكم، ليتوجه كل الوعي مع الطائرة، الله ضدّ الشرّ والعدوان، وين الأشاوس؟

انحرفت إحدى الطائرتين، انزلقت مباطنة للتلة المجاورة، لم تطلق علينا شيئاً.

ـ إنها تخادع، انتبهوا يا شباب.

اقتحمت سماءنا الطائرة الثانية. الطيار يميل بها قليلاً وهو يتسلَق الهواء، إنه يسدّد باتجاهنا. العكروت!!!

ـ حمّام يا شباب، حمّام ساخن، ولايهكم بإذن الله. إضغطوا على أسنانكم الطيار يتخلى عن التسديد، الطائرة تفقد عزمها، ثم توازنها، القنابل، عشوائياً، سقطت، لكن الحمّام أُنجز. الطائرة تتلوى. كوة حمراء في يمين الخاصرة السفليّة توهجت. النجمة لم تعد تبرق. إنها تتميّز غيظاً كجهنّم.

---

(١) ـ من خطاب السيد الرئيس عشية الحرب.

ـ هل ستقول: هذه آثار الحمام؟

ـ معك حق.

ـ أحد الرماة يصرخ: إي حمّام الهنا يا ست.

يرد عليه جندي تغيَّر صوته قليلاً:

ـ قل نعيماً، ألطف للستّ.

الستّ لاتريد الخروج من الحمام. لقد راق لها على مايظهر. هاهي ذي أطرافها تسترخي على سور الشريط الشائك المحيط بالقاعدة، وهي الآن تتنشّف في العراء.

وقد توهَّج عارضاها، لكن... ليس حياءً!!...

من دفتر مذكرات

قائد سرية دفاع جوي ٧ أكتوبر ١٩٧٣

مذكرة خاصة بغارة جوية

في هذا اليوم الثامن من أكتوبر تشرين الأول ١٩٧٣ الساعة ١١. حصل الهجوم الجوي المعادي على موقعنا بثماني طائرات من طراز فانتوم وسكاي هوك. ربّما كان العدو قد قرر إخراج القاعدة الجوية السورية المتقدمة من المعركة بهجوم جوي ضخم واحد. كما يروق له أن يدّعي.

لم يكن من نصيب سريتنا في هذه الغارة غير طائرة واحدة، كان همُّ الطائرات المعادية تخريب المهابط وتفجير مستودعات الذخائر. لكني لاحظت أن كل بطاريات الدفاع الجوي تشتبك، مما يدل على بعض العدالة في توزيع الطيارين الإسرائيليين أنفسهم علينا، إلّا أنهم، وكما يبدو من توضع قنابلهم على الأرض، لم يحالفهم الحظ في أن يعدلوا حتى النهاية، وذلك بسبب حرارة الترحيب، فصّبوا حمولتهم من القنابل كيفما اتفق، بحيث تفجر في مساحة ترابية فارغة غرب رأس المهبط أكثر من تسع قنابل من زنة ٥٠٠ كغ. وأبلغت مناطق حسّاسة من المطار أنها خالية من أية قنابل. أمّا خطّ تملّص الطيران المعادي، فقد ناله حظ وافر من القنابل، وهذه شهادة أرضية لاتحتاج إلى ديباجة أو خيال أو تحليل عسكري حاذق، شهادة بأن الطيران المذعور، أو المصاب، يتخلص من حمولته في طريق الانسحاب وعلى أقرب خط من الأهداف المعادية، ليحدث تأثيراً معنوياً في حال غياب التأثير المادي

بالنسبة للذين لايعلمون شيئاً عن تكتيك الطيران وواجباته في القتال أولاً، وليسهل عليه الوصول، بعد التخفيف، من الحمولة، إلى مناطق الأمان ثانياً. من أجل هذا، وبعد انتهاء الغارة، كنت تسمع خطّاً متسلسلاً من الانفجارات إلى الغرب والجنوب من القاعدة. وفي القرية السفحية بالذات بدأت بعض البيوت تطير في الهواء ويندلع فيها لهب كثيف مسودّةٌ أطرافه.

يا للأوغاد، قتلوا المدنيين إذاً. عاتبت نفسي. وفي الجهة الجنوبية للقاعدة وعلى مبعدة خمسة كيلومترات أوأكثر كانت آخر طائرة معادية ترسل دخاناً كثيفاً بطيئاً وكأنها قلعة أضرمت في دهاليزها النار. أرى الآن الجنود، إنهم مازالوا على مدافعهم وآلاتهم متنمرين، قنابل أخرى توضعت بعيداً عن مربض السرية مازالت تتفجر تباعاً. إنها زمنية ولاشك خطيرة أيضاً. غير أن أحداً من الجنود لم يخفض رأسه عن مستوى مربض المدفع، بالتأكيد لايجهلون أنها تقطع الأشلاء وتحمل الموت، واهتديت أخيراً إلى أنه «الثأر وغياب الخوف» ما الذي حصل والجنود لم يرفعوا أرجلهم عن دواسات الرمي ولاعن المراقب والنظارات المضيئة؟

أسقطت الطائرات المعادية بطريقة القصف الموجه، أنواعاً عديدة من القنابل، طرازاً ووزناً وغرضاً. أخطرها كان تلك المحرمة دولياً، الخزانات المنفلقة جواً عن رمّانات صغيرة اسمها «كونيتنرز Continres» التي تنفرش فوق الموقع مثل زخّة من البرد على بستان مشمش عاقد الثمار.

قال رفيقي الملازم عدي فيما نحن نتفحص أرض الموقع:

ـ إنها قنابل أمريكية يا سيدي، صنعاً ومصدراً، استخدمت في حرب فيتنام ضدّ المواقع المحصنة وتجمعات المشاة والمناطق الخلفية،

والدُّشم المستعصية، وهي محشوة بالمسامير وكرات الفولاذ المخلوطة بمادة T.N.T والخزان الواحد يتسع لـ: ٦٥٠ رمّانة، وقد سُميت رمانة لأنها محشوة الأجواف على طريقة الرمّانة العادية، فتصور كم يظلم المستعمر الطبيعة حتى في تسمياته وتشبيهاته؟

ـ لاعليك، يا ملازم عدي. نحن لها أيضاً.

ومن مساعد السرية جاءني البلاغ: السرية عتاد. رجال ـ مهمات، سالمة باستثناء جريح واحد حمله رفيقاه إلى النقطة الطبية، وعادا مطمئنّين بعد أن تأكّدا من إسعافه على يد طبيب الميدان الذي أرسله بسيارة إلى المشفى الميداني للتصوير الشعاعي.

تنظر الآن من حولك إلى أرض الموقع تراها تغيرت قليلاً أو كثيراً، بقع منها محفورة كحفر الجدري، بقع أخرى مرشوقة بالشظايا وفتات الحصى المحروق، بقع أخرى غبراء تعوم فيها ظهورٌ لرمّانات غاطسة ذات حراشف.

قلت: والله غريبة، لم نحسّ بها ولم نرها أثناء الاشتباك.

قال الملازم: كنّا متعلقين بحبال غرام الفانتوم في الأعلى، والحب يصرف الانتباه عما يجري في محيط العاشق.

ـ وصفك جميل، وموحٍ، وآسر، يا ملازم ولكن كان من المحتمل أن نتهشّم، ثم هل معنى هذا أننا لم نعمل جيداً؟

ـ بل عملنا، والدليل قلة الخسائر، وسقوط الطائرة المهاجمة التي قصدتنا بالتدمير يا سيدي.

ـ رأيي عليه بعض التعديل ولا أقول الاختلاف.

ـ كيف؟

ـ إنَّ أرضنا، أيها البطل، تحارب إلى جانبنا، إنها رديف لنا في كل

غارة، وفي كل غزوة، وهي الأمينة والحامية، والصديق الحنون والمستودع الرحيم، والمعوّض عن الدم والعظام بالعطاء والخير والزهر والثمر والغلال، ونحن حين نضع الخوذ على رؤوسنا، تقاتل هي بصدرٍ مكشوف.

انبسط شاربا الملازم الأشقران ولمعت عيناه بالاستفسار.

ـ لاتتعجل أيها الملازم. انظر إلى تينك الرمّانتين المحجوزتين إلى يمين مدخل المربض الثاني، ها، حدِّق جيداً.

ـ نعم رأيت.

ـ إنهما غير منفجرتين. ولاتستطيعان حراكاً. إذن هما محجوزتان لصالحنا. أو أسيرتان.

ـ ومن ثم؟

ـ انظر الحفرة الواسعة من الغبار المعروك في المدخل الآخر، الغبار الذي طحنته من مهجة الأرض أحذية الجنود الثقيلة.

ـ ماله يا سيدي؟

ـ هذا الغبار تلقّف الرمانات اللعينة، وتفجّرتْ في حنجرته، ولم يرتفع منها إلى الأعلى، إلّا القليل من الشظايا، لقد خنقها فعلاً.

أشرقت أسارير الملازم وتوهّج وجهه بالغبطة وعقّب:

ـ إنك شاعر يا سيدي، وهذا الوصف الإبداعي يريح أعصاب المقاتل.

ـ أضف إلى ذلك أنني لمْ أخالف في مقولتي نهجَ شعر الفروسية عند العرب والذي كان كله في الدفاع عن الكرامة، والأرض، والعرض، والشرف، ومحامد الأخلاق، وتذكّرْ أنَّ الرسول العربي محمد صلوات الله عليه. قال:

ما أحببت أن أرى فارساً ينشد، وهو يدافع عن القيم العربية، أكثر من محبتي رؤية عنترة العبسي.

أو ما قرأت لفارس شاعر وأحببت أن أراه إلّا عنترة. والرّوايتان واردتان.

لفحتنا هبة ساخنة من التراب المحروق، أشعلنا سيجارتين. توجهنا إلى المقاتلين الذين تعلقوا بعتادهم كما لو كان أشجاراً مثمرة في آن قطافها وجناها.

أنْ تصفَ ثباتهم واندماجهم في المَهمّات، بكلام، فشيء قليل قليل، وغير كافٍ ولاشافٍ.

لكن أن لاتقول شيئاً؟ فأمرٌ يشبه إنكار الشّهادة. ومن ينكرها فإنه «آثمٌ قلبه».

٨ أكتوبر ١٩٧٣م

الفانوس الأزرق

انتهى النهار ولم نشتبك مع الطيران المعادي غير مرّة واحدة هذا اليوم التاسع من تشرين الأول ١٩٧٣. أصبح الاشتباك الواحد حدثاً لايلفت النظر.

لقد استنتجنا أن العدو أصبح يرسل طيرانه للمشاغلة لا للتأثير، فمن جهة لأنه تلقى ضربات قاسية على الجبهتين، ومن جهة ثانية لأنه أصبح عديم التأثير.

انحدرت الشمس للمغيب خلف هضاب الجولان، ووراء عمامة جبل الشيخ الذي أصبح جنودي يسمونه: ذقن الشيخ لأنه أصبح شبيهاً بذقن حمراء أو ذقن شبَّ فيها حريق مباغت. شمس الأصيل المعهودة لم يعد لها انسيابها الحريري الوهاج. لقد أصبحت خيوط الأُصيل مغبّرة داكنة بعد السادس من تشرين الأول ١٩٧٣ م، لأن دخان المعارك، وغبار القنابل، هَبَوات التراب المنطلقة خلف الدبابات في ذيول من الغمام الواطئ القاتم أنواء أصبحت تشارك الشمس إشراقها واحتجابها، ولم تقوَ أشعتها على هضمه.

ها قد خيم الليل، والليل هنا لايعني غير الساعات المحسوبة زمناً لانقضاء مابين المغيب والشروق، بحسب تقويم شرقي المتوسط. لأن شيئاً من العمل هنا لاتتغير وتيرته.

القنابل المضيئة والشهب الملونة والأنوار الكاشفة، القصف المدفعي

البعيد المدى، القصف الصاروخي الليلي، كل هذا محا الليل الذي عهدناه مظلماً وهادئاً خلال ماتصرّم من أعمارنا محواً كلياً من أذهاننا، وجعل الزمن خطاً مستقيماً متصلاً مقسماً إلى فواصل ملونة. لم يبق من الليل المعهود غير عتبتين، محطتي ذكرى، قابعتين على التقويم المرسل من الأرصاد الجوية بموعِدَيْ شروق الشمس وغروبها.

كان دوري في الاستراحة التي نسميها رقاداً، تيمناً بالرّقاد القديم العهد، يمتد من الساعة التاسعة مساءً وحتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ـ المضيء أو المشرق.

دلفت إلى خيمتي العسكرية، ألقيت بكل جسدي وتجهيزاتي الميدانية على السرير الحديدي الذي فقد قائمتين من قوائمه بشظية قنبلة في غارة سابقة. نهارية.

علقتُ مذياعاً صغيراً في وتد حديدي غرسته في جدار الخيمة الترابي القائم في عمق الأرض، كما علقت جهاز القناع الواقي من الغازات السّامة والبندقية /الكلاشينكوف/ بوتدٍ موازٍ.

بقي وتد ثالث فارغاً من أية مهمة لم أعرف الغاية التي من أجلها غرسه الجندي ممدوح الذي يقوم بشؤون الخيمة.

لحظات ودخل الجندي، حيّا ثم أشعل عود ثقاب أولع به فتيل فانوس مطلي باللون الأزرق، كان يحمله بيده، ثم علّق الفانوس بالوتد الثالث ذاك قائلاً:

ـ عندما تنام يا سيدي. أطفئه لئلا ينشر روائح مضرة، أو يلتهب كلّ الزيت فيه فيشعل الخيمة. لاسمح الله. وهذا خطر يا سيدي. ضحكت من كل أعماقي ضحكة طويلة. محاولاً ألّا أؤذي مشاعر الجندي الطيبة تجاهي:

ـ أبَعدَ القنابل من عيار ٥٠٠ كغ وحشوات الـ ت.ن.ت والنابالم يبقى مكان للهب قنديلك العتيد يا مديح أفندي؟

وهل تعتقد حقيقة أنني سأنام النوم الحقيقي وجنودي على مدافعهم؟

ـ كما تأمرون يا سيدي، أجاب الجندي بخجل. وتابع:

اسمح لي بالاستراحة في خيمة عمليات السرية.

ـ اذهب، لكن لاتتأخر عن موعد استراحتنا.

قلَّبتُ مؤشر المذياع بين عدة محطات بسرعة من يبحث عن شيء افتقده، أو تحيَّر أين أضاعه. استقرّ المؤشر على صوت أغنية:

«وسمينا وسمينا، وعدّينا طريق النصر، ورجّعنا ورجّعنا ابتسامة مصر».

أصابتني الأغنية بهزّة تاريخية فوق أرضية، ابتسامة مصر تعود؟ يا الله. أحببت أن أسمع الأغنية حتى نهايتها حين قذفتني ضمن سديم الحلم الوردي، أنهيت سماعها ثم حوّلت المؤشر إلى إذاعة دمشق. كان المذيع يحصي الأعمال القتالية اليومية للجيش السوري الباسل:

ـ.........

وقد تم إسقاط خمس عشرة طائرة للعدو من طراز فانتوم، ميراج، وسكاي هوك.

ـ تدمير عشرين دبابة باتون وسنتوريون للعدو في القطاع الجنوبي والقطاع الأوسط.

ـ أسر ثلاثة أطقم كاملة من رماة صواريخ م/د. للعدو

......

«بلادي الأمّ بلادي الحَيّ، بلادي البيّ الرّباني»

«بحياة عيونك يا خيِّ خلّي أرضك منصاني».

عند هذا المقطع تدحرجت من مقلتي دمعتان حارقتان، ماذا تصنع؟ قد تكون الذكرى أقسى من الحرب في أحيانٍ كثيرة. ماذا تفعل عندما تنقذف أمامك فجأة صورة أمك العجوز دامعة عليك وهي تقبلك مودعة، أو صورة أختك اليتيمة واجمةً تقول:

- يلعن أبو الصهيونية، في غيابك كيف سأداوم في الجامعة؟ ومن سيقدِّم لي ما أحتاج؟؟ آخ يا خيي.

«ولك عند عيونك يا خيتي. يلعن أبو الصهيونية والاستعمار ويلعن أم التواطؤ مع الصهيونية الذي جعل العالم يرانا صغاراً وجهلة، وحياة عيونك وعيون أمي الدامعة لن نبرح من هنا حتى نجعلكنّ ترين دموع الصهاينة تعرض على شاشات تلفزة العالم كلها. أبشرن».

نهضت مسرعاً من باب الخيمة أرقب شيئاً مجهولاً، عندما يستبدُّ بك الغضب ولاتجد مكاناً جاهزاً لتفريغه فإنه يخشى عليك مما يسمونه بـ: الإحباط، والآمال المحبطة ذات تأثير سيء على الشخصية وتوافقها وشروط تجاوزها أزماتها، كما كان يؤكد لنا أستاذنا الكبير في علم النفس في جامعة دمشق.

كم تمنيت أن تظهر للتوّ طائرة معادية، دبابة، شيطانة. غولد... مو... شي.. لكن الحظ لايواتيك في كل مرّة.

حككت رأسي. أشعلت لفافة ورحت أشفط منها وأنفث بسرعة عادم سيارة سرعتها فوق المائة. كان دويُّ المدافع بعيدة المدى لاينقطع، النيران تنسفح في الوديان البعيدة وعلى التلال كأنها رفوف من طيور جهنم، لم

أشأ العودةإلى الخيمة سريعاً، تأكدت بنفسي من يقظة عمال خيمة العمليات ومن دوريات الحراسة. من جاهزية المناويين والرماة على مدافعهم في السرية. من سلامة خط الاتصال مع عمليات الموقع، وجدت كل شيء على مايرام، ما العمل الآن؟

وعدت من جديد إلى الخيمة الميدانية لأستلقي حيث لم ينته وقت استراحتي بعد.

أقفلت المذياع الذي كان مازال يطنطن ببعض الموسيقا، ولم يبق في الخيمة غير اثنين يقظيْن وملتهَبينْ: أنا والفانوس.

كان الفانوس بلون أزرق، تذكرت السماء، وخيّل إليّ أنني أراقب الجوّ في رابعة النهار، وانتظر طيراناً معادياً، صقور داود الذين سرعان ماتحوّلوا إلى حمائم وانية في سماء سورية، يطيب تصيدها. كان الفانوس يموج كضوء الشمس الشاحب في سماء الجولان، بذا اطمأننت أنني غير نائم البتة، وذلك بقدرتي على المقارنة، وأني لست غائباً عن سماء المعركة.

- «كم أخلعك أيها الليل الذي لايمكن استهلاكه لصالح الحق والحرية».

- «لماذا تعودنا أن ننام في أوقاتك فاستعبدتنا العادة؟ - لا، لن أنام. وراحت نفسي تحاورني: - بل نم إن كنت تستطيع».

- «ولماذا لاأستطيع؟».

- «هل تأمن سقوط قذيفة بعيدة المدى فوق الخيمة ليلاً؟

- «وهل اليقظة تردّ القذيفة العابرة ليلاً؟».

- «وإذن»؟

- «اليقظة أفضل في كل الأحوال، والطيران الليلي يمكن التعامل معه».

ـ «لايمكنكم أنتم، هذا ممكن لمحطات الصواريخ فقط».

ـ «ممكن: أقول ممكن. أذناي مفتوحتان بدل عيني، هل تستطيع طائرة معادية أن تترك صوتها في قاعدة «رامات دافيد» في الأرض المحتلة وأن تكون فوقنا بقدرة قادر لابفعل محرّك؟

ـ «لا ولكنها تسبق الصوت كما عرفت، وتصل قبله، وبهذا تكون قد تركته خلفها يلهث في الطريق».

ـ «طيب، أنا مفتوح العينين والأذنين والرأس والأعصاب، والحقد أيضاً»، وإن إضاءة الصواريخ السابحة في الآفاق المفتوحة ستفضح خط سير الطائرة المعادية، وأنا سأكون غير هياب. أنا قُمرة ستعمل بكل طاقتها الآلية والحيوية والروحية، ألا يكفي كلّ ذلك لكشف طائرة معادية متسللة؟ خرس الوسواس الخناس وتراجع.

كانت خيمتي مفتوحة الباب باتجاه القدوم الأكثر احتمالاً لطائرات العدو، كما كانت الخيمة إياها قد تشقق وشاحها الغربي اليميني أمس بفعل الحجارة المتطايرة بتأثير تفجر قنابل بعيدة، فتحولت الفتحة العُلوية أيضاً مَرقباً آخر للخيمة، مفتوحاً على الجو مباشرة.

كان الفانوس مايزال يلهيني تراقص لهبه الخافت، يا للفوانيس، كم تختلف هي أيضاً. كنت مثلاً قد عرفت فوانيس أكواخ الكروم، وفوانيس العشاق، فوانيس مطعم أبي نواس في حلب. فوانيس مطعم علي بابا في دمشق، كانت كلها توحي بالأمن والدفء والطمأنينة و... الحياة؟ لكن فوانيس الميدان تعني شيئاً آخر: الحذر واليقظة، السّهر، ولكن بانتظار طائرة قاذفة وليس بانتظار صديقة أو مطربة أو راقصة. عدت فقررت أن نكون ثلاثة أيقاظ في الخيمة، إذا نام واحد صحا اثنان. وهذا أضمن لتنبيه النائم، وجعله جاهزاً للاشتباك في لحظة المباغتة.

أطلقتُ صوت المذياع:

إليكم وديع الصافي في ثلاث أغنيات:

«خضرا يا بلادي خضرا ورزقك فوّار»

«محروسة بعين القدرة تبقى هالدّار»

أوه... ماهذا، مبروك يا وديع. قد تنال وسام بطل الجمهورية غداً، وفركت عيني بظاهر كفي.

أدرت مؤشر المذياع إلى أية محطة تطلق صوتاً عن القتال في/ الشرق الأوسط/ كما تدعوه الاذاعات الاستعمارية، استبعاداً لاسمه التاريخي، وطمساً لهذا الاسم الرائع الحقيقي /الشرق العربي/:

ـ تان، تان ـ تان ـ تن، هنا مونت كارلو.

إليكم أبناء عن القتال في /الشرق الأوسط/.

ـ استمرار المعارك الجوية والبرية والبحرية على الجبهة السورية الإسرائيلية ويقول مراسلو وكالات الأنباء الأجنبية المتواجدة في ساحات القتال بأن الجيش السوري حقّق اليوم انتصاراً ممتازاً على الجيش الإسرائيلي في الأرض وفي الجو، فقد تمّ اكتساح ثلاثة أرباع الجولان، ولم يبق أي أثر لما كان يسمى /بخط آلون/ المضاد للدروع والذي كان الإسرائيليون قد حفروه في الهضبة خندقاً مدعماً بالألغام المضادة للآليات والأفراد ومكهرباً أيضاً، وقد شاهد أحد المراسلين طاقم دبابة سورية من طراز ت /٧٢/ السوفيتية الصنع يغسل حوائجه في مياه بحيرة طبريا.

ـ استمرار المعارك في سيناء. وتقدم الجيش المصري شرقي خط / بارليف/ الذي كان رفعه الإسرائيليون في مقابل قناة السويس وعلى طول خط الجبهة المصرية الإسرائيلية ودعموه بالمراقب والمخابئ ومدافع م/د

وأجهزة الإنذار المبكر المثبتة في أعلاه، وذلك منذ حرب ١٩٦٧م. ويُعتقد أن نيّات الجيش المصري هي التوغل في سيناء باتجاه الممرات المفضية إلى إسرائيل مباشرة: المتلا والجدي.

يا إلهي خاطبت نفسي، ولكن يا... يا. يا لهذه الاذاعات الخالية من الحياء، والحياء شعبة من الإيمان. والإيمان هو الحق دون الباطل، يا لهؤلاء الناس!!!. يتكلمون وكأنهم ينقلون مباراة بكرة القدم، بينما الحالة تختلف كما تختلف الحياة عن الموت. كيف يهجم الظالم على المظلوم فيحطم عظامه ويسكب دمه ويزهق روحه ويتغنى بآلامه ويشرب الخمرة على روحه وهي تخرج في نزعها الأخير، ويحق لناقل الخبر أن ينقله بحيادية وهو يعلم المعتدي من المعتدَى عليه، فلا يرقّ ولايتنهّد بأسف ولايرثي لصاحب حق مغتصب، ولايشهد بالحق إذا مادُعي لأداء شهادته، إن التاريخ لم يشهد زُناةً بهذه الدرجة من الصفاقة والتعامي.

«الصهيونية ليس لها الحق بطرد الفلسطينيين من بيوتهم وأراضيهم. هل يمكن أن ينكر ذلك إنسان يحمل هوية بشري ويتصف بأقل قدر ممكن من مخزون الإنسانية»؟

«ويجب أن يقول كل العالم ذلك».

«واليهود الغربيون المهاجرون إلى إسرائيل، مع أنهم لم يولدوا في فلسطين وقد لايعرفون العبرية، كيف يكون لهم الحق بابتلاع أرض الفلسطيني؛ أين يذهب هذا. هل يقبله الغرب في الدار التي هاجر منها اليهودي الأمريكي مثلاً؟».

يجب أن توقَف الصهيونية عند حدّها من قبل العالم المتمدّن.

وإلّا فما معنى الحضارة ومنظمة الأمم المتحدة التي أفرزتها الحربان

العالميتان لحماية الأمم والشعوب من تجاوز بعضها على بعض، تأكيداً منها على أن السلام العالمي هو مطلب إنساني عام للجنس البشري كله وليس لفئة دون أخرى؟

كيف يقبل كبراء هذا العالم. وعقلاؤه. وحكامه الأقوياء أن يُهدِّد السلام العالمي، أليس السلام أهم من الصهونية بالنسبة لسكان الكوكب الأرض عموماً؟

أفقت من محاكماتي الأكاديمية عندما دقت الساعة الثانية صباحاً. كان البرد قارساً، فالخريف هنا يتميز بطقس شبه صحراوي، كان رفيقاي مازالا يقظين. وقد استدللت من بحة صوت المذياع ونوسات القنديل أنهما كان يجريان، كلٌّ بمفرده، حواراً مع التاريخ، لايقلُّ إنسانية وجاذبية ونبلاً عن حواري مع أفكاري عن التاريخ والحق والعدالة والإنسانية.

و.... «فقط الصهيونية هي التي لاتقيم حواراً مع ذاتها».

إفطار مضاد للطيران... أيضاً

في الجولة الليلية على الجنود يسمع قائدهم أمزوحاتهم الصافية التي إن دلّت على شيء فإنّما تدل على الثقة بالنفس، بالاستمرار، بالوطن، بالحياة، أن تظهر في المقاتلِ روح الدُّعابة وسط أتون الحرب؟ فذلك أمر له مدلول بعيد، بعيد، ومحلّق في أجواء الثقة والأمل إلى أبعد مدى تبلغهُ قذيفة صاروخية، بل نجمة.

يسألهم قائدهم:

هل أنتم راضون إذاً عما تحققون من أعمال قتالية؟ ويجيبون على الفور جازمين:

- كلاّ يا سيدي، فلو كان عملنا جيداً لما نجت طائرة واحدة، ولما أفلحت في إسقاط حتى خزان وقود فارغ في أرضنا. يعرف قائدهم أن رغبتهم هذه شبه مستحيلة التحقيق، حتى في أمتن دفاعات العالم الجوية. وأن مايحققونه بوسائطهم العادية ممتاز. إلّا أنّه يكتشف، دون أية احتمالات في الخطأ، أنهم لايحبون عرض العضلات ولا التبجح. ويتذكر أن تلك كانت صفات أبطال العرب على مرّ العصور، وفي كل معارك التاريخ التي خاضوها.

هذا اليوم، كما في الذي قبله. استوينا على أرض موقع القتال، منذ ماقبل الفجر الأول، كما في الذي قبله. بانتظار غارات العدو الجوية. ضبطنا الساعات، ثم نقشت، على دفتر الغارات الجوية التاريخ ١٠/١٠/١٩٧٣ م.

كان برد الصباح قارساً في ذلك اليوم، النّدى يسربل الحجارة فتبدو كسلاحف خارجة من ساقية موحلة، كما بدت المدافع كالحيتان المطلة بمتونها فوق سطح البحر. وبلّور المناظير ظهر كمقل تجمعت فيها قطرات ماء بعد سباحة في بحيرة نظيفة، وبدت خوذ الجنود مثل بطيخ أخضر في حقل مزارع سوري فائق العناية بحقله.

وكانت أشعة الشمس المكتسحة للأرض بمَيْل الشروق، تلتمع فوق الأخاديد الترابية الحمراء. فتبدو الأخاديد محمّرة كأفخاذ عجل مذبوح لتوّه، ومعلّق، بجاذبية، بكلاليب الجزار.

دوّى بوق الإنذار في القاعدة، رنَّ جرس هاتف الميدان بجانبي، في الوقت نفسه، يبلغني إنذاراً عن طيرانٍ معادٍ منطلق من «رامات دافيد» باتجاه الأراضي السورية.

ارتبكت استجاباتُ الجنود قليلاً حتى نهاية بوق الإنذار لأنه، كما كانوا يقولون عن البوق أكثر من مرّة: ليس صوتاً إنسانياً، ونفضِّل عليه إنذاراً بصوت إنسان.

في الحال أبلغتُهم، بالصوت الإنساني، وبواسطة مكبرة الصوت، قوام الطيران المعادي وجهته المحتملة، بعده الحالي، طرق القصف المحتملة، طرق التعامل معها، كما عيّنتُ أطقم المشاغلة في حالة المفاجأة وأطقم التسديد المتريِّث.

كانت عيون المقاتلين مبثوثة في كل مكان، وكنت متأكداً، بالاستناد إلى إشتباكات سابقة، أنهم سيميِّزون الأهداف الجوية بمجرد ظهورها، وسيجيدون التعامل معها والصمود في وجهها، إلا أنه لابدّ من تدخلي في إدارة الاشتباك وتوزيع الأهداف، وإعطاء أو التذكير ببعض المعلومات الفنية في كل اشتباك جديد، وهذا لايكون قبل الاشتباك، وإنّما في إبّانه، ولابدَّ

لي من التريّث والمراقبة الجوية، مثلهم تماماً.

ماهي غير لحظات حتى أعطى بوق الإنذار إشارة إنتهاء الغارة الجوية.

عقّب الجندي مديح، القصير القامة، المتين، الممتلىء الوجه، والذي كان يعمل حدّاداً في المدينة قبل أن يصبح جندياً في الدفاع الجوي:

ـ تخلّصنا من صباح كريه هذا اليوم، وكان شارباه الكثيفان يتراقصان كصفّيْ حور في غوطة دمشق، مرّتْ عليهما عاصفة. ردَّ الجندي حسيب الذي تلازمه ابتسامة عريضة هادئة، وضاءة ومنفرجة، تنداح على شفتيه كبقايا موجة عالية وصلت إلى الشاطئ:

ـ الوقت طويل يا أخ مديح، ولم تكد الشمس تطلع جيداً بعد، الخير لقدّام، مشّط شاربيك جيداً لغارة وجبة الفطور.

علّق الجندي كمال، ذو الطول الممشوق الذي يذكّر بقامات عرب الصحراء:

ـ أنا لاأخاف من اللص الذي يسبق طلوع الشمس. ولكن أخاف منه عندما يأتي في وضح النهار يا سيدي.

علّق الرقيب برجس. قائد الطاقم:

ـ جنودنا. كما تلاحظون يا سيدي. بدأوا يديرون مضافة.

ـ لابأس عليهم يا برجس، لكن أريد العيون مشدودة إلى الأفق لأن الأضواء بدأت تنصبُّ فوق أكتاف السلاسل الجبلية المحيطة بنا، وربما استغل الطيران المعادي تأجج أشعة الشمس. كالعادة، وأتى من جهتها، ليحقق نوعاً من المباغتة. حيث تعلمون صعوبة التعامل مع الأهداف التي تتسلق الشروق العنيف لأشعة الشمس.

ساد صمت، فيما بعض كلمات خفيضة كنت ألتقطها تتهاوى من

الطاقم الثالث، البعيد نسبياً. واستطعت أن أميّز صوت الجندي... صقر الذي يشبه هيكله الخارجي سنونو مهاجرة من صحراء الربع الخالي، يهمس لزميله محمد الذي يشبه بلّوطة عاتية في غابة من جبالنا الخضراء:

ـ إذا ارتفعت الشمس بطول قامة. ولم يأتوا، فهم لن يأتوا أبداً. قال له يوسف وهو ينفث ضحكة مكتومة من منخريه:

ـ يُحتمل أيّها المنجم.

دوى بوق الإنذار بغتة. تلقيت بالسلكي إعلاماً عن طيرانٍ معادٍ في طريق العودة إلى الأراضي المحتلة، لم يستطع تنفيذ ضربة في منطقة مطار (بلي) يقترب من موقعنا، وقد ينفذ مهمته ضدنا، كمهمةٍ بديلةٍ، إن استطاع.

للتوّ، أبلغت الأشاوس جهة الطيران المعادي، المخالفة في هذه المرة للقاعدة العامة. طال الانتظار حتى ربع دقيقة، نصف، ثلاثة أرباع دقيقة كاملة، دقيقتان، ثلاث، هذا زمن طويل ولم يظهر طيران معادٍ.

قد يستغرب الذي يقرأ صحافة المعارك، وهو جالس على كرسيه في شرفة بيته يشرب الشاي عبارة: طال الانتظار، ولم يمض غير ثلاث دقائق، فعبارة طال الوقت قد تعني لذاك المستريح يوماً أو نصف يوم، إلّا أن وقتنا هنا يختلف عن وقته، الأوقات أيضاً نسبية. تطول أو تقصر، هي نفسها. بحسب الظروف؛ ليس هذا كلاماً عجيباً. ففي عالم الطيران الحديث والصواريخ يتسع الزمن العادي كثيراً، يتمدّد، فثلاث دقائق لدينا مثلاً، ماذا تعني هنا؟

إنها تعني بكل بساطة، غارة جوية كاملة الأبعاد. والردّ عليها، سقوط طيران معادٍ، وهبوط طيارين بالمظلات، سقوط قتلى وجرحى على الأرض.إخلاء الجرحى، إعادة الجاهزية القتالية، كما قد تعني التهام بيضة مسلوقة، مع شفط كأس شاي ساخن في البلعوم الظامئ خلال ذلك. من

جهة الشرق سمعنا أصوات طيران في العمق، أصوات مختلطة تدور في الجو كالطاحون، وخلال بضع أجزاء من الدقيقة الرابعة أبلغنا أن طائرات الميغ السورية المقاتلة من طراز ميغ/ ٢١ تتبعت السرب المعادي واشتبكت معه وأسقطت منه طائرتين. وفرّ الباقي شرقاً، بعد أن أفرغ حمولته /للتخفيف/ فوق موقع ترابي مقفر اسمه «تل أصفر» وهو جبل واطيء يخلو من أي شيء.

بردت أعصاب الجنود وعاد /المنجم/ السنونو، يهمس ليوسف:

ـ قلت لكم أنهم لن يأتوا وفي النهار شمس، طلعت الشمس، انتهى الموضوع، إنهم ليسوا من قدّنا في الضوّ.

قال له يوسف متصنّعاً الجدية:

ـ صدقتك وسأضرب عندك فألاً عن صبيّة تناسبني عروساً. ثم دوّى بوق الإنذار معلناً إشارة انتهاء الغارة.

كان وقت الإفطار قد حان للذين ليسوا صياماً، وعقيب انتهاء الغارة يكون الإفطار أسرى في الحلوق. وأقل احتمالاً لأخطاء المضغ والبلع.

أَعطيتُ إذناً بتوزيع الإفطار على الأطقم القتالية في مرابضها من قبل جندي الخدمة، ونفذ ذلك بالتناوب أو بالتتالي، بحيث لايبدأ إفطار طاقم قبل نهاية إفطار الذي يسبقه في الدور. لعلكم الآن تظنون الظنون بالجنود الطيبين ـ فكيف يتحلقون حول مائدة الإفطار والعدو الجوي بالمرصاد للبلاد؟

لكن لا، اطمئنوا، فالإفطار الذي يحصل هنا لايكلف مائدة ولاطبقاً، حتى ولاأرضاً ولامقاعد، إنه إفطار/ مضاد للطيران أيضاً/ ركائزه فقط متصلة بالأرض، وباقي مواده محموله في الفراغ. بضع من الفطائر بالجبنة يزدردها الجندي مع كأس من الشاي البارد فوق سرير المدفع، بغمضة عين، ثم يمسح الجندي فمه، ويمسّد شاربيه بظاهر كفّه قائلاً، الحمد لله

على نعمائه. وتنتهي الوجبة.

كل شيء هنا تحوّل إلى مايشبه سرعة الطائرة والقذيفة والرّصاص. فالقرين لابدّ متأثر بقرينه، وهكذا... حتى النوم. والأحلام، والتفكير. والالتقاط. والقرار. التصويب والاطلاق كادت تصبح مترادفات لغوية، مع الاعتذار من اللغويين. إذ بهذا ضمنّا أن نوسّع الزمن فنعيشَ أطول في اللحظة، بالمقارنة مع زمن الناس خارج مواقعنا، والذين قد ينفقون ساعة كاملة في تركيز نظاراتهم الشمسية على أنوفهم، بينهما قد تنتهي حرب. ويتقرر مصير شعب بأكمله في ساعة واحدة مما تعدّون.

كانت الشمس قد أترعت الكون بوهجها السّاطع، هاقد مرّ إنذاران بغارتين جويتين ولم نشتبك هذا النهار. هذا ما أثار بعض الرضى وأزال الانقباض وأطلقَ الأنفاس.

علت الضحكات الرنانة، واشتعلت لفائف التبغ وبدأ لغط الجنود على عتادهم:

ـ طائراتهم لن تجرؤ بعد اليوم على المرور من فوق القاعدة يا شباب. ذاقت الطعمة.

ـ ستجرب حظها ثانية ربما، لأنها من هناك تُرسل، بالأمر العسكري وبالقوة، حيث ذكرت بعض وكالات الأنباء أن الطيارين الإسرائيليين أصبحوا يُربطون إلى كراسي القيادة في طائراتهم ربطاً حتى لايعود بإمكانهم القذف بالمظلة كلما رأوا صاروخاً سورياً من طراز سام انطلق نحوهم فحسب. بعضهم أخذ يمسح مناظير مدفعه ويديرها صعوداً وهبوطاً وهو يدندن بأغنيته المفضلة، كانت اللطافة بادية على الأصابع في تعاملها مع العدسات، حتى لكأنها في حنانها أنامل المحب وهو يداعب عينَ حبيبته التي أتعبها السّهر.

حلّ وقت الظهر.

هنا دمشق والساعة الآن الواحدة من يوم ١٠/١٠/ ١٩٧٣م، أعلن الراديو. نقدم إليكم أيها السادة مجملاً لأعمال قتال قواتنا حتى هذه الساعة: قامت وسائط دفاعنا الجوي والصواريخ بالاشتباك مع تشكيل من طائرات العدو، في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحاً، فوق منطقة الغوطة الشرقية، وقد أسقط للعدوّ سبع طائرات قاذفة من طراز فانتوم. قفز طيارو ثلاث منها بالمظلات قبل أن تصاب طائراتهم، وقد شوهد ذلك من قبل السكان ومراسلي وكالات الأنباء بالعين المجردة في محيط العاصمة دمشق.

وفي تمام الساعة السادسة والنصف تقدم تشكيل معادٍ من جهة الجنوب الشرقي لمنطقة مطار «بلي» العسكري، ولم يستطع تنفيذ مهماته. فقفل راجعاً، وعلى الفور لحقت به طائراتنا المقاتلة، واشتبكت معه فوق سفح «تل أصفر» أسفرت المعركة عن إسقاط طائرتين معاديتين، وتدميرهما وتمكن باقي التشكيل من الفرار شرقاً. أصيبت لنا طائرة واحدة قفز طيارها بالمظلة سالماً، وتم التقاطه بواسطة حوامة سورية مجهزة لهذا الغرض. الحمد لله على سلامته.

أما في القطاع الأوسط من الجبهة السورية... لم يكد المذيع يكمل كلمته حتى دوّت أصوات طائرات الفانتوم تطحن الجو طحناً عميقاً قادماً من جهة الجنوب.

صرخ جنودٌ بحدّة: فانتوم. فانتوم.

- لاترتبكوا. حسب التعليمات. كلٌ في قطاعه.

حلقت ثلاث طائرات معادية إلى أعلى، في مواجهة القاعدة، وبعيداً عن تأثير مدافعنا المضادة جملة. وحتى خارج نطاق المدى الأقصى لمدافع المائة الرادارية. شدت إليها انتباه الجميع.

أصبح كل طاقم يتنمّر لها عندما ستختار، مجازِفةً، قطاعه الخاص بالرمي، خلال ذلك وأثناء تسلّق تلك الطائرات وإشعالها الجو بهديرها، وإيهامها الأعين بأنها تتحيَّن فرصة الانقضاض ومكانه المناسب. انزلقت طائرة أخرى للصوص من الخلف، خارقة جدار الصوق، سافَّة، والشمس تتوهج على معدنها فتبهر العيون وبدأت بإسقاط قنابلها كيفما اتفق، واستطاعت طائرة معادية أخرى أن تفرغ حمولتها من القنابل في منطقة رأس المهبط الجنوبي للقاعدة. لكنها ما أن بلغت نهاية الشوط وأرادت التخلص من جو الموقع بكامله، حتى تناولتها إحدى سرايا الرشاش الرباعي القريبة منها. وبدأت الرشاشات تنبح وتنبح حتى تمكنت بسرعة خارقة من أن تعضّ كبين الطيار، ترنَّحت الطائرة، لكنها استمرت بفعل عزم المحرك الدائر، تدفّ بشكل أعمى، حيث تهاوت فوق تل ترابي شرقي الموقع وخارجه، تحطمت، ثم اكتسحتها النار بمن فيها. أما باقي الطائرات المغيرة فقد توزعتها سرايا الدفاع الجوي في الموقع بحسب القرب والبعد من الطيران المتسلل. وكان ذلك قد أصبح أمراً عادياً، ومألوفاً لدينا، بل لايستحق أن يقف أحدٌ عنده.

إنّ للإنسان ألف ذاكرة، وألف دماغ، وألف عين، وألف يد، عندما يشاء أن يعمل، قلت في نفسي مبتسماً للتماسك الذي بدا على الجنود وهم يتعاملون تلقائياً مع أهداف جوية مفاجئة، ناسين، أو مهملين لكل ماينفجر من حولهم وفيما بين ظهرانيهم، وكل مايسقط، أو يمكن أن يسقط من الجو، من حولهم، أو فوق رؤوسهم:

فقنابل تتهاوى في الجو وصواريخ منفلقة آلياً فويق الموقع، ونيران وقذائف، انفجارات وحجارة وصخور تتطاير في الجو، لعلعة القذائف المضادة للأهداف الجوية التي تثقب الآذان بزعيقها الحاد وهي تمرق بموازاة المقاتلين، أو فوق رؤوسهم بقليل، وكل ذلك لم يمنع واحداً من الرماة من

الاشتباك مع الطيران المعادي بمنتهى الإقدام والتثبت والتحكم. قد يخطر لك أن تقول: هذا وصف فيه شيء من التخيُّل، غير قليل، أقول لك مبتسماً، وبمزيد من الثقة والتأكد:

ـ بالطبع، وككل بشر المعمورة، يوجد خائفون، لكن ماكان موجوداً من الشجعان. كان أكثر بكثير، بدليل عدم وقوف أي طاقم عن عمله القتالي، أو هروبه إلى خندق أو حفرة أو ملجأ، مثل هذا لم يحصل البتة في الجبهة السورية، وحيث شهد بذلك مراسلون عسكريون محايدون أو أجانب عندما قالوا: إن الجنود السوريين يواجهون العتاد الإسرائيلي في الجبهة بشجاعة نادرة المثال، وقد شهدنا دبابات سورية انتهت ذخيرتها، تهجم، بصفيحها، وجهاً لوجه على دبابات السنتوريون الإسرائيلية الثقيلة، المستوردة من بريطانيا حديثاً.

وعلى خط الاتصال العام مع كل سرايا المقاومة الجوية، كنت أسمع توالي البلاغات س١، س٢، ـ.... س٩....

الخسائر لاشيء، عتاد ـ سلاح ـ رجال كامل.

أمر يثير الإعجاب حقاً، لقد كان الشهود على ذلك كثيرون ممن اشتركوا أو عاينوا، من أهل القرى المجاورة: اثنتا عشرة طائرة معادية تفشل دفعة واحدة. ولهذا تفسير واحد، هو أن الطائرات كانت تعمل مذعورة، وشبح الملاحقة الأرضية يُرجفها.

ماهي غير برهة من تنفسنا هواء التشفي حتى دوّى انفجار. اثنان. ثلاثة.

ـ ما الخبر، ماذا يجري.؟

ـ قنابل زمنية تتفجّر.

ـ خفضوا رؤوسكم، ولتكن بمستوى سطح تراب المرابض. جاء الأمر من العمليات.

لكن، وبكل أسف، أعلن قائد السرية المجاورة... لقد اغتالت الشظايا المتطايرة الملازم يوسف الأحمد بينما هو ينفض الغبار عن خوذته خارج المربض بعد انتهاء الغارة.

كذلك، لقد استُشهد العسكريان: عالول وتنبكجي اللذان كان متطرفين عن موقع السريّة في مهمة إصلاح خط تليفوني ميداني. بينما كانت القنبلة الموقوتة بعيدة عنهم، تتهيأ للانفلات، حاملةً خداعها الصهيوني المكتوم، وحقدها الأرعن الدفين.

بينما كانت ورشة الصيانة تنهي مهمة إصلاح رأس المهبط، كانت سيارة الإسعاف تطلق منبهاً حزيناً، وهي تقلّ الشهداء الأبرار إلى مشفى المؤخرة.

كانت الأيدي تلوح للسيارة، بينما الدموع لاتملك إلا أن تسيل على الخدود التي تقبّضت عضلاتها في موقف وداعٍ فيه رهبة وجلال كبيران. كانت أصوات «إنا لله وإنا إليه راجعون»...

...... تتردد بين جنبات مرابض المدافع والأجهزة الأخرى.

ولقد قطع هذه الأصوات أو غطى عليها صوت مكبّر للصوت يردد أغنية:

«الأرض بتتكلم عربي. الأرض، الأرض» لسيّد مكاوي

انضم إليها الجنود يكررونها بنغمها، وجهارتها، بعمق نهرٍ هادر فيه وعد.. ووعيد يتصل مع الآفاق...

وبعضهم يشتم: يا أولاد الكلبة، الصهاينة، نحن وإياكم والزمن طويل.

عاشقان... تحت القصف الجوي

الساعة الآن العاشرة من يوم ١١/١٠/١٩٧٣م. نحن الآن على عادتنا، في انتظار الطائرات المغيرة. كل شيء لدينا جاهز ومعدّ للاشتباك مع طائرات الفانتوم الأمريكية الصنع. الحديثة جداً. المقدمة لإسرائيل كهبة، دون مقابل. لقد تعودنا على هديرها الأجوف بُعَيْد الصباح. وقُبَيْل الغروب.

ثمة عصافير تروح وتجيء مزقزقة في الجو. وجهتُ لها نصيحتي بالابتعاد وهاهي ذي تستجيب شاكرة، اعتدنا أن نرى قطيعاً من الكلاب يمرّ أمامنا في الصباح محيّياً. متجهاً إلى بقايا طعام الجنود، لكنه أصبح يتخلف عن موعده في الأيام الأخيرة بعد كارثة القنبلة العنقودية في العراء، فأحسسنا بوقع الفراق مؤلماً.

الطيران السوري مايفتأ يحلّق في الجو، صانعاً مظلة واقية للقوات الأرضية، أربع طائرات من طراز ميغ ٢١ تمرق من أفق الموقع باتجاه الغرب، وهذا يستدعي الجزم بمعركة جوية سنشهدها عاجلاً. أصبح الذهن نادراً مايخطئ في التوقع. وصلني الأمر الهاتفي العاجل جداً: شدّدوا المراقبة، كونوا على أتم استعداد للاشتباك مع طائرات معادية من اتجاه الغرب ـ اتجاه مرتفعات الجولان وتل الفرس ـ انتهى.

ظهر ذيل رفيع من الغبار يتلوى في الموقع، دخل الذيل قطاع سريتنا، بصعوبة تميز اللون الزيتي للدراجة النارية القادمة، إنه جندي البريد

الحربي بدراجته المموهة القوية، ثوانٍ أخرى وكان «العفريت» يقف أمامي مليئاً بالثقة، كان رأسه يغطس في الخوذة الفولاذية فلا تكاد تميز حاجبيه إلا بصعوبة. أدّى تحية قصيرة، امتدت يده إلى جعبته المكسوّة بالتراب:

ـ بريد سريتكم سيدي.

ـ شكراً.

ثم طار الذيل الترابي من جديد إلى مواقع أخرى.

فضضت غلاف الظرف الكبير، كان يحوي نشرة من الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة بدمشق، ورسالة عسكرية أخرى مطوية، ورسالة ثالثة ملوّنة. تخصني شخصياً بالاسم.

«أهذا وقت المراسلات الشخصية؟ حدثت نفسي، وممن تكون في هذه الساعة الحرجة؟».

«لكن الرسالة منها، هذا اسمها على الظرف، و: دُقٌّ، دُقٌّ، يا قلبي، سأحارب اليوم طيران إسرائيل وحدي».

استوعبت النشرة السياسية، وقرأت الرسالة العسكرية بإمعان. وتفهمت جيداً، مابها. رفعت الرسالة الملونة بين شفتيَّ، درت دورة كاملة حول نفسي، ربّما كما يدور الزوّار بمجامر البخور حول أولياء الله الصالحين، وبعض الحركات لايمكن تفسيرها بسهولة. إنّما هذا الذي حصل. تفحّصْتُ كلَّ مافي الموقع والجو بعدستين تليفيزنيتين هذه المرة. ودخلت مع ذاتي في حوار جوّاني صوفي. هل أنا أمسح بالفأل الحسن كل مواقع الجبهة السورية، بهذه التميمة الملوّنة!؟

ـ أحارب بالرسالة؟

ـ أبشر بالسلام والمحبة، مسيحاً معاصراً؟!

ـ أزهو بحبيبتي التي لم تتركني وحدي أواجه الأعداء؟

ـ أشهر سلاحاً سرّياً جديداً؟

ـ أتخذ رسالتها جرعة دواء ضد الخطر الجوي... الإشعاعي، الجرثومي، الكيماوي؟ وضد غازات الأعصاب أيضاً؟

ـ بسملة «حِرزٌ» يُلجم أفواه مدافع الأعداء كما يُلجَمُ الوحش بالفخّ؟

ـ هل أفضّ الرسالة الآن؟ هل هنالك وقت للحب وسط أتون المعركة؟

ـ قد يكون في الانصراف لرسالة قُبيل غارة جوية خيانة وطنية.

ـ ولكن أليس في التنكر للرسالة الملونة خيانة أيضاً؟

ـ تستطيع أن تؤجل الرسالة حتى حلول استراحتك في الليل، فتنقذ نفسك من خيانتين.

ـ ولك يا عمي، وأي إنسان من لحم ودم تصل إليه حبيبته، بعد أن اجتازت إليه المسافات والمخاطر فيقول لها: انتظري هناك. دون أن يبادر فيريحها على زنده إغماضة عين، فيخفف عنها التعب.

ـ الرأس أصبح في نشوة، أقول لك.

ـ إذا قلت لها: انتظري، وحصلت الغارة الجوية، وذهبتْ جثتي بقذيفة جو/أرض معادية، والتقيت وحبيبتي يوم الحشر، وسألتني من باب الفضول النسائي: عن بعض عواطف وكلمات الرسالة، ولم أعرف. ألا تتكشّف ثمة خيانة و.... توابعها؟

استخفاف قد لاتتحمله عيشا، حبيبتي المواطنة الأصيلة التي تستحق الإخلاص.

ـ تريّث يا ولد، ربما انقضّت طائرة عليّ وأنا لاهٍ عنها أقرأُ رسالةً. فهي لن تنتظرني حتى أنتهي من اللقيا الإنسانية المقدسة، فالعدوّ يفسد دوماً العواطف الإنسانية النبيلة، وربما فطمتنا الشظايا عن العناق قبل حين الفطام، لأن الحرب كما يقولون، مجردة من العواطف.

ـ لكنك في هذه الحالة قد تموت مبتسماً، وهذا وحده مغرٍ، افتح الرسالة يا ولد إذاً. والاتكال على الله.

أصابعي تزيح طرفيْ الرسالة الملصقين عن بعضهما برفق وكأنّها تزيح شعر حبيبتي الطويل المتكدس على جبينها الأسمر فتفصله إلى شقين قمحيين ذهبيين براقين كخيوط الذهب. بينما هي بازغة من تحته وهي تخفض بصرها حياء، فأقبلها قبلة محترقةً تشعل الكروم بالخمر.

وأقرأ:

حبيبي الغالي: تلقيت رسالتك الأخيرة مستبشرة، مرتفعةً كصوفيٍّ لحظة تواصله مع الروح العليا، فاضت دموعي، وتألق الوعد من جديد، اطمأننت على سلامتك التي هي نفسها سلامة تراب بلادي المقدس، خصوصاً عندما صرت تكتب إليّ من الجبهة مطمئنا، منذ سبعة أشهر.

كنت في بعض أشغالي البيتية، منهمكةً، يعتريني القلق، وإذا برسالتك تطلّ عليّ، أستغفر الله، تشرق، فتذبح ليلي الحزين بمديتها الذهبية، يطير التعب، يتخثّر الملل، أفتح رسالتك بأصابع كاهن يمسح على عَينَيْ أحد مريديه بالزيت المقدس. أدخل في نشوة. أنا لم أعصر العناقيد بعد، أتحسسها فقط، ومع ذلك... إني أراني أعصر خمراً ثم:

تمتد يدي. أمسك بالقلم بين أصابع مرتجفة، أنحني على الطاولة، أتناول ورقة بيضاء كقلبك. أكتب إليك. أرسم قلبي مُخطّطاً حيوياً لاكهربائياً. هذا القلب الذي أصبحت دقاته مفصّلة على مدى نغمة

حروف اسمك، هذا ما أسمعه أنا، فقد أصبح قلبي في أذني، وليسمع الأطباء مايشاؤون من آلاتهم الصماء.

أقول: أصابتني الغيرة من هذه الورقة التي سيُقدَّر لها، بعون الله، وصدق المحبة، أن تتأرجح مابين يديك...

هل أكوِّر نفسي أم أبسطها فأدخل هذا المغلف الذي يتجه إليك؟ كيف أستطيع، بالله عليك، لاتبخل عليَّ باقتراح يناسب رغباتي، إن كنت تستطيع، يعزُّ عليَّ جداً أن تكون في مثل هذه المواقف وبعد تلك المتاعب... بدوني.

تبّاً للأعداء أَبَلَغَ بهم التنكُّر للإنسانية أنهم لايقرّون بأنَّ الأحاديث بين عاشقين أطرى من البارود، وأطيب عطراً! وأن الكلمات أرقّ من الرصاص، وأن القبل أمتع في الوقع من القنابل، وأن تنهدات المحبين ألصق بالإنسان، وأكثر انتساباً إليه من صفير القنابل وصراخ الصواريخ.

لابدَّ، ستكتب الوحشية نهايتها المحتومة في هذا العالم. وستعود المياه إلى مجاريها الطبيعية، سيعود المشرَّدون إلى وطنهم، وسيعود الرجال إلى نسائهم وأطفالهم، والمحبون إلى حبيباتهم، وستمتلئ البيوت قبلاً وأطفالاً بلون الرُّمان.

أتتذكر نهاية النازية في التاريخ؟!

ثم انتصار السلام والمحبة، أتتذكّر عودة ذلك المحارب الرّوسي بعد ثلاث سنوات من الحرب الطاحنة مع النازية، إلى امرأة تزوجها، وحملت منه في بعض حلّاتِه، محروق الوجه كان، خُيل إليه أنها ستنكره. خجل أوّلاً، ثم عرفته امرأته من أنفاسه، وكان يهمها كثيراً أن تعرفه، لتلقي بانتظارها المديد، على صدره القوي الدافئ، ثم هو، كيف أصبح مزهوّاً بها كالطاووس؟؟؟!

المجلة التي أرسلتها سوف تبقى مخلدةً لديَّ، لأنك قد كتبت بداخلها: /يوميات مقاتل/ سأجلس وحدي في الغرفة نفسها التي أكنت أجلس وإياك فيها للمطالعة، وسأتناول المجلة وسأردد كلماتها بصوت مسموع. لأنها ترددت على لسانك أولاً، وبذلك أكون كأني أسمعك بأذني والمسافة تنحسر بيننا إلى الشبر، وليس أكثر. وربّما تقلّصت، ونحن غارقان في دنيا ورديّة، حتى تنعدم تلك المسافة أو تكاد.

قل لي، مُزْني، ماذا سأصنع لك حتى حين عودتك بإجازة، هل أنسج لك كنزة كرزية؟

أعرفك تحب هذا اللون. كنت تقول: إنه من لون شفتيَّ. هل سترسل لي صورة بلباسك العسكري في الرسالة المقبلة؟ أتمنى، اقترح عليَّ كتاباً أقرؤه في غيابك.

. أعتذر عن طول الكلام، فقد أكون صرفتك عن واجبك العسكري، الذي أشعر أنه من أجلي. تصبح على خير.

الوفية: عيشا

قال الرقيب الأول برجس فيما هو يلحظ ظرفاً ملوَّناً بين يديّ:

ـ لقد أراحنا طيراننا من هذه الغارة، وتولّى التعامل معها في مكان ما بكل تأكيد، الله يعطي طيارينا العافية، وإلا لكان بالتأكيد، قد صبَّحنا طيران العدوّ، كالعادة صباحاً كريهاً، وكان يبتسم ابتسامة ملغزةً، يَستدعيها ظرف ملوّن ينتقل من كفٍّ إلى أختها بانفعال واضح.

ـ معك حق يا برجس، لكن الخير لقدّام، هل تشك في سوء نية العدوّ؟

ـ كلا، والله كلا، ولا أشك بغدره يا سيدي.

تحسست الظرف من جديد، مرت أصابعي على شبه مستطيل مقوًى، إنها صورتها ولاشك، هممت بإخراجها إلّا. أنه،...

وقبل أن يكمل الرقيب مابعد واو العطف بعد كلّا الثانية، أشعل وميض خاطف جوانب الجو، السّماء ترعد و، إنه وميض صواريخ جو - جو، ثم وقع انفجار مضج يتلوّى.

الرمي بالتمييز، طيراننا يشتبك مع طيران معادٍ في سماء الموقع، لاترمِ إلا بعد التأكد أن الطائرة معادية. سطح الاشتباك بين طيراننا وطيران العدو واسع جداً، يكاد يشمل كامل الجبهة، هل عُلِم؟ غرفة العمليات.

- عُلِمْ يا سيدي. وبقيت سماعة المهتاف على أذني كما العادة في الاشتباكات عموماً.

أبلغت الإنذار إلى جميع أطقم الرمي.

- قنابل تزمجر، تزفر إلى اليسار منا، بَلَّغَ برجس منبهاً.

- ميّزوا الطيران المعادي جيداً، لاترمِ دون أمرٍ مني. صرخت.

أصعب أنواع الاشتباك تنفذ الآن، دخان، غبار متصاعد، مناورة الطيران، سرعات جنونية. كل ذلك لن يسمح لك بتمييز الطائرة المعادية من الصديقة إلا بقدرة قادر.

رفعت الرسالة بما فيها. حشرتها تحت سترتي في أعلى الصدر من الجهة اليسرى، حفاظاً عليها من أيِّ أذىً فيما لو ألقيتها بين الأوراق الأخرى، وفضلت أن يكون مصيرها مثل مصيري، ولِمَ لا، أليست صورة عيشا الصبيّة العربية المخلصة في حبها، بداخلها؟

يا إلهي، الرحمة، القنابل تتساقط هنا، هناك، وأنت لاتستطيع التدخّل.

تخاف على الصديق في الجو، من قذائفك المضادة، وتخاف من

العدوّ وأنت على الأرض من قذائفه الجوية ضدك، أيّة مأساةٍ هذه؟ لأول مرة يلتقي الحقد والحب في مساحة واحدة، مساحة فوق الرأس مباشرةً.

المطاردة مستمرة، والمناورة مستمرة، أصوات الطيران تطحن الجو طحناً بألف رحىً، السماء تدور بألف معمل، وكذا أصبح الرأس يدور، أساليب القتال الجوي تُستخدم كلُّها من قبل الفريقين. تتميَّز الميغ ٢١ بسرعة الالتفاف وضيق زاوية المناورة، تحدث إصابات فوقنا، أمامنا، لاتملك فيها يداً، في الارتفاعات العالية، والمسافات البعيدة لايمكننا استخدام مدفعيتنا المضادة بشكل مؤثر، نحن لنا سقوفنا. لم يبق لنا إلا استخدام الرشاشات الرباعية، وضد الطائرات المنقضَّة أو السافّة حصراً وهي التي تمرق فويق الأرض، ثم تقصف من وضعية التسلّق حصراً.

ـ لاحظوا جيداً، لاحظوا، أو هو هو، طائرة معادية خلفها طائرة ميغ ٢١ تلحق بها بجنون، تكاد تصدمها من الخلف... تتدلى الطائرة المعادية في الأفق الشرقي للمطار العسكري مشنوقة بحبل أحمر ـ أسود ـ أبيض ـ أسود.

ـ لاتنشغلوا، لم تنتهِ الغارة بعد، تابعوا المراقبة، التمييز... الرمي بعد التأكيد. أقف بطول قامتي وسط الميدان، أنا في نشوة منذ نصف ساعة، مابين كل هذا الجحيم.

«أعترف».

لم أشهد أعصابي بمثل هذه الراحة والهدوء منذ أول الحرب، رغم معرفتي التكتيكية بأن العدو يمكنه الآن بسهولة، مابعدها سهولة، أن يستغل غطاء الاشتباك الجو ـ جو، لصالح هجمة جو ـ أرضية إضافية، منخفضة ورهيبة. أنا لم أنسَ لكنني غير هياب.

دوّى بوق انتهاء الغارة، الاشتباك، وتنفس الجنود الصعداء، خاطبت الرقيب: إليّ

ضاحكاً هرول طالباً بلهفة:

ـ طمئنا عن سرايا الموقع، المطار.

ـ كلها بخير، كل قنابلهم انفجرت خارج مناطق التأثير، كالعادة، هذا ماسمعته على السماعة بينما كل الأطقم القتالية والكبائن تبلغ على الخط العام عن نفسها.

ـ كان اشتباكاً رهيباً، أخطر مافيه عدم القدرة على التمييز، بسبب الدخان والغبار والسرعات العالية والمناورات بالطيران يا سيدي.

ـ ألا تعتقد بالجنود التي لاتُرى؟

ـ نعم، وهل أنزل الله جنوداً لم تروها. هذه المرة كما في غزوة حُنَين يوم غدر يهود بني قريظة بأهل المدينة المعاهِدة؟

ـ نعم، أنزل جنوداً، لكن أنا رأيتهم، ألم ترهم أنت؟

ضحك نصف ضحكة، وعقب بمكر لطيف فيه روح المزاح:

ـ لعلهم خرجوا من الظرف الملون هذه المرة؟

ـ بالتأكيد، ألا تثق؟ أليس لك منهم أيُّ جندي ربّاني حليف؟

ـ اح، احم، نعم لي سيدي لكنها..

ـ ستأتي مرة لتظاهرك ضد العدو. اطمئن.

عدتُ إلى نفسي... «ولقد صدقت حبيبتي وعدها، وكما قالت في آخر رسالتها: إن الحبّ يهزم الطائرة في النهاية، ويفرقع القنابل العنقوية قبل أوانها، إن مقاومة الإنسان، وهو في حالة حبّ، أكثر جدوى بألف مرة

منها وهو خالي الوفاض منه ومن أسبابه».

والحق أن كل خلية فيّ كانت متيقظة، وكنت مترعاً أملاً وحيوية، وحظاً. أستخرج الرسالة الآن يا عيشا، من فوق اللحم، جهة القلب، وأستبقي صورتك فوق الصدر، شعار حبٍّ، ووسام حرب صادر من أعلى سلطة مانحة في هذه الدنيا ـ سلطة المحبين ـ ولتذهب كل النياشين الذهبية إلى الجحيم.

حفلة سمر ليليّة في خيمة ميدانيَّة

عندما هبط الليل، كان من الممكن أن يجتمع نصف عناصر السرية لفترة ساعة أو حتى ساعتن. في حين يبقى النصف الآخر مناوباً على المدافع والأجهزة الليلية، ذلك أن طيران العدوّ الليلي أصبح نادراً مايتجرأ على التحليق، وأنه في وضح النهار لم يعد يهتدي، فكيف في الليل؟!

كانت مثل هذه الاجتماعات قصيرة، مذعورة في الأيام الأولى للقتال. ولاتتمّ إلّا بناءً على أمرٍ عسكريٍّ أعلى لتبليغ موقف أو نشرة أو أمر عسكري عام، أو لعرض ملاحظات قتالية وتقويم أخطاء وتعديل بعض التعليمات الحربية بما يتفق مع جوّ /المعركة/ المتبدل باستمرار.

أما الآن فقد أصبحت هذه الاجتماعات تتسع حتى للقضايا الشخصية. تحدّث جميع قوّاد الأطقم عن إنكار الذات الذي لاحظوه على المقاتلين. بينما انحسرت الأنانية التي كانت تظهر من حين لآخر على بعضهم قبل القتال. هكذا تحدثوا في تقاريرهم الرسمية عن سير المعارك وروح الجنود المعنوية ومسلكهم الميداني. أمَّا أنا فسأسوق نبذاً منها: عينات فقط. في إطارها العملياتي اليومي، لأنها الخبز التاريخي، أو البذار الموروث للجندي العربي:

تكسَّرت أصابع الجندي /سليم/ بشظية بينما كفه على مدور المدفع كعامل زاوية، يكزّ على أسنانه، لايصرخ، ولايبلّغ عن إصابته إلا بعد انتهاء الغارة.

مساعد السرية /تقلا/ يكسر ظهره بفعل كدرة هائلة طائرة بتأثير قذيفة جو ـ أرض، بينما هو على مربض المدفع ـ يعصر عينيه من الألم، لكنه لايعوِل.

جنديا العمليات، خليل. وبشير. يخرجان لإصلاح وتوصيل الأسلاك تحت القصف الجوي، مباشرة دون أن يظهر على خديهما أي أثر للانقباض، أو على ساقيهما أيّةُ رقصةٍ للخَور أو الخوف.

لم تكن تسمع من أي جندي إلا لعيونك، عند عينيك يا سيدي، إنهما الكلمتان اللتان تسودان سلوك المقاتلين، ومن أية رتبة.

وهناك ماهو أشد بلاغة من الكلام: وهو ماحصل أكثر من مرّة، طيارٌ سوري تنفذ صواريخه، وهو مازال في الجو في حالة اشتباك مع الطيران المعادي، يأتيه أمر العمليات بالانسحاب السريع والهبوط في أقرب مطار حربي، أو بالقفز بالمظلة حين يرى ذلك مناسباً.

الطيار السوري الأعزل، يصعب عليه الفرار. يخالف الأمر العسكري، يقرر الالتحام مع طائرة العدو ـ طائرة لطائرة ـ العدو الجوي يصعق، يهستر، هل هذا معقول؟ أيوجد فدائيون من هذا الطراز في الجو أيضاً؟ هذه الحالة لم تمرّ معه في دروس الأكاديمات. هو نسي أن الأكاديمات تعطي الدروس ولاتعطي الشجاعة ولا التضحية. ولا العزائم. كان العدو الجوي قد شهد هذه الظاهرة مراراً بين الطيارين السوريين، ويالدهشتك عندما تسمع عن طائرة إسرائيلية مسلحة تهرب أمام طائرة سورية عزلاء. «بهذا الشأن يمكنك أن تراجع سجل الطيّار السوري الشهيد فايز منصور».

يحلُّ وقت الطعام. وقت العشاء، تؤجله ساعة، ساعتين، ثلاث بانتظار وجبة سماوية من طيرانهم، ولاتجد جندياً واحداً يتململ أو يسعل. أو

يهمهم أو يدمدم، أو يتنحنح للفت الانتباه، حتى ولامقروح المعدة الذي أعرفه لم يحتجّ بـ: أنا لم أعد أحتمل، طبيبي يقول لي، معدتك مقروحة والجوع يعجها، مع أنك تفترض أن تسمع مثل هذا وتعدّ نفسك لتحمله والتعامل معه، فهو تفريغ طبيعي لشحنات الانفعال والانتظار، ويبدو مقبولاً في كل المعارك.

كان الجندي /سليمان/ يقول في الأيام التي سبقت الحرب محتّجاً: أمثلي أنا صاحب الزوجة والأولاد السبعة تجرّونه إلى هنا، وهل خلت الدنيا من الشباب العزّاب؟ زوجتي ستضع الولد الثامن قريباً جداً، هذه رسالتها تحت رأسي، هاتوها، اقرؤوها.

وأما الآن فهو رابض كالسبع على تبّة صغيرة مخصصة للمراقبة الجوية. يدخّن سيجارته العربي اللّفّ بهدوء يستدعي الحسد. يراقب الجو بدقة من خلال مرقبه الملوّن، بإمعان مدهش، يعطي إنذارات مبكرة جديرة بالملاحظة عن الطيران المنخفض، لم تعد له زوجة الآن ولا أولاد يسألون أمهم كل صباح: ماما وين بابا؟ في إحدى القرى النائية من البلاد السورية الواسعة.

هذا الصبر الجميل. ماتسمونه إنكاراً للذات في الوقت العصيب. اختفاء المصالح الفردية لصالح مصلحة الجماعة والوطن، طباع عربية أصيلة، لمسها كل من حاول أن يسبر نفسية المقاتلين. مثلي أنت الآن لابد تتذكر أو تتداعى إلى ذهنك صور الدّعاية الأجنبية المعادية والصهيونية المغرضة التي لوّنت على مدى سنين طويلة هذه الملامح الإنسانية والوطنية الفذة للإنسان العربي باللون الأسود أو الحائل المخالف للونها النقي الناصع، الصافي.

انتشرت رائحة الجوارب في الخيمة الميدانية، ماذا تصنع، فالحذاء لم

يُخلَع منذ أول يوم للمعركة المستمرة، الغبار صنع علي الوجوه والرموش والحواجب بمصاحبة العرق الآدمي قناعاً ترابيًّاً متشققاً في بعض أماكن الوجنة والرقبة. الخوذة الفولاذية حفرت أخدودها المستدير في شعر الرأس وربّما في لحم الفروة أيضاً.

قال خليل، مسؤول غرفة الاتصالات مستغلاً وقت الراحة لصالح أجهزته:

ـ نحتاج لتبديل البطاريات.

ـ نحتاج لتبديل كل موقعنا. قال بشير مقلّباً عينيه في محجريهما.

ـ على كل حال يا إخوان، بحيرة طبريا، لن تكون من حق قوات الدفاع الجوي الآن، إنها من حقّ المدرعات والمشاة، قال سليمان الراصد. رد عليه كمال:

ـ ألا تفكر بإجازة ترى فيها زوجتك وأولادك ونوع الولد الذي وضعته زوجتك؟

ـ أتريدها أن تنكرني بهذه القيافة؟ أجاب سليمان ضاحكاً، بينما هو يحك شاربيه بظفر إبهامه، وقد اعتور صوته شيء من التقطع أو الانعراج الذي يتكشف عن الحنين للزوجة والأولاد والذي يصعب إخفاؤه لدى الآباء غالباً.

ـ آخ، آخ، يا عمي، أنا لي عروس، كزهرة القرنفل، طويلة، تتلوى كقضيب الخيزران، إذا ضحكت توقفت الينابيع عن التدفق، والحساسين عن الزقزقة، وإن رفعت جفنيها نحو شيءٍ عرته هزّة أو أصابته رجفة أو صدمة، تحبني كثيراً، لكن لاتعرف أين أنا الآن. كان كامل الجندي المربوع، الممتلىء ثقة وصحة: يصرّح بهذه التصريحات

الخطيرة بينما هو يزدرد قطعة من اللحم ضمن رغيف مسخَّن على بابور الكاز. ثم يتابع:

ـ كانت تظن أني ذاهب إلى حفلة ألعاب نارية، قالت: اذهب، مع السلامة، لن تكون وحدك هناك، بكل تأكيد، إنها ماتزال صغيرة السنّ، وتبهرها الألوان الحمراء والزرقاء والخضراء، سامحها الله، أنا لاأشك بقلبها، ولكن بخبرتها فقط.

ـ يبدو أنها أشجع منك، متضاحكاً عقب بشير الجندي النحيف، ولكنك تتهمها بقلة الخبرة لتبرز عنتريتك على حسابها.

ـ سيخبرها. فيما بعد. أنه هو الذي هزم أسطول إسرائيل الجوي وحده. وأنه كان يصطاد الطائرات كما العصافير بالنقيفة، ولولاه لمحقت المواقع الصديقة، بل ربّما تغيّر وجه الحرب. وأن القوّاد بدؤوا يأخذون معه صوراً تذكارية ليوزعوها فيما بعد على المصورين ووكالات الأنباء، بل ربّما لتلصق على جدران المباني العسكرية. عقّب الرقيب /خير/ وأضاف متودّداً: بل وفي الشوارع العامّة.

ـ أحمر وجه كامل، وانفتخت أوداجه وأزبد وأرغى ثم أجاب: هل تنكر صمودي على المدفع يا حضرة الرقيب في الغارة الأخيرة؟

ـ معاذ الله، ولكن يا ليت تلك الطفلة كانت هنا الآن.

كان هناك جنود صامتون، يأكلون ويشربون ويستمعون، لكن المجموع ضحكوا بملء أفواههم عندما بلغهم كلام الرقيب، إنهم لايحبّون التبجّح، وليس من طبعهم، وقد عقب أكثرهم غامزاً نحو كامل:

ـ نعم كلنا نحب الصبايا، وندافع عنهنّ، مافيها شيء. ياليتها كانت هنا وشاهدت مراجلك!!!

ممتعضاً محتداً أجاب كامل:

ـ هذا تطاول على من أحب، أو عروسي بالعربي، يا حضرة الرقيب، أهذه تعليقات معقولة ومقبولة في نظرك: وقانونية؟

ـ استغفر الله لا ياكامل لا، ولكن نحن أردنا أن نقول: إنها لو كانت موجودة لتحول كل غبار الميدان إلى بودرة حلاقة باريسية، ولتحولت كل الصواريخ المعادية إلى أسهم نارية في حفلة لعب أطفال، ولتحولت الطائرات إلى فراشات ملوّنة...

المرأة تبدِّل الحديد يا شيخ.

أما عن قانونيتها فيجب أن ترفع الأمر إلى منظمة الأمم المتحدة. مارأيك؟ ارتفعت ضجة الضحك حتى كادت الخيمة تطير، وصار كل عسكري يدقّ رأسه بصدر رفيقه، يسعل بالضحك المتواصل، انفتح صوت كامل بالاحتجاج حتى آخر عيار، وكأنه أراد أن يتصل الصوت بالملازم الذي كان يتفقّد السلاح في المرابض ثم ظهر على مدخل الخيمة فجأة يصحبه رقيب وعريف، تابع كامل: لو كانت الأمم المتحدة ترجع حقاً لأرجعت فلسطين لأهلها أولاً. ثم:

يأتي دور كامل و ـ ألا يدافع سيادة الملازم عن الفتيات المهانات؟ هذه والله إهانة لكل فتاة، أتسمعهم يا سيدي كيف يغتابون الناس، ويتضاحكون باستخفاف ولامبالاة، بل وكأنهم يبذلون معروفاً؟

ـ معك كل الحق يا كامل. أجاب الملازم. وتابع: إني أقترح أن تبعث لها بكتاب تطلبها فيه إلى هنا، لتدافع عن نفسها. وتفقش حصرمة بعين كل حاسد منهم، فحواء أقدر منك، على كل حال، في الدفاع، وهذه القدرة تاريخية موروثة، هم على مايظهر لم يصدِّقوا أنها تحبك، أو أن لك عروساً.

علا صخب ومرح مجنونان في الخيمة الميدانية؛ إن الملازم يحبّ أن يشترك في المزاح على مايبدو مع الجنود. وهذا واردٌ في أحوال كثيرة. وهي فرصة للجنود لإبراز مواهبهم غير القتالية، والضرورية أيضاً لكل إنسان في حياته العامة، فالمرء هو إنسان قبل كل شيء، والضحك من متممات الشخصية السَّويّة، ومالبثت أن ارتفعت أصوات جماعية في الخيمة:

ـ يعيش الملازم.

ـ يعيش الجيش.

ـ تعيش قوات الدفاع الجوي البطلة.

ـ تعيش مدفعية الفوج الرهيبة التي هبرت طيران العدوّ. ـ يعيش القاضي الجميل، ملازمنا.

كانت كل الضحكات والأسنان تلمع في وجه الملازم الذي ظل ضاحكاً حتى ظهر آخر ضرس من أضراسه المرقعة بالذهب.

وكان الضرب بالأكفّ على أخمص البنادق ودقّ الأرض بكعاب الأحذية وشفط كؤوس الشاي عن آخرها إشعارات صارخة بالحبور. وحب الحياة والانسجام التام مع الظرف الراهن. بل ومع الحرب!!

حتى كامل.. تخلّى عن عبوسه.. وانخرط في جوّ المرح والتفاؤل. وبينما كان الجنود يخرجون من الخيمة في نهاية راحتهم متجهين إلى مدافعهم، ليحلّوا محل الفريق المناوب: كانوا يغنون بمرح ظاهر وقد تأبّط بعضهم ذراع كامل قائلاً بغبطة:

ـ لقد كنت نجم السهرة الليلة يا كامل أفندي.

ـ أحييتها يا عفريت.

ـ بالتأكيد، ستكون أول إجازة لك من قبل الملازم، وعليها علاوة يوم أيضاً ربّما.

ـ الحظ لأهله يا عمي.

هزّ كامل رأسه:

ـ ها، لتعرفوا أنني نجمكم في النهار... والليل. وقد رفع صوته ومطّه ليصل إلى مسامع الملازم الذي كان قد ابتعد.

أجاب الملازم وقد عرف مايريده كامل:

ـ حقاً، ستكون أول إجازة لك /يا كامل/ في كل السرية، هل عند أحد إعتراض؟

ـ كلا، كلا يا سيدي، ردّد الجميع.

فيما كانت أصوات طيران الاستكشاف الليلي الصديق تتسرب من بعيد، من الخلف، مذكرة بموعد استرجاع الوجه الباسل، المتحفّز للجنود.

مشهد سقوط الطيارين الإسرائيليين بالمظلات..

منذ الصباح يصعد الصبيان والبنات إلى الأسطحة ليروا مناظر قلّما شاهدوا مثيلاً لها إلا في الأفلام، وهاهي الآن تجري أمام أعينهم، في مسرح من الأرض والسماء، مسرحٍ حيٍّ، وليس شاشة سينما أو تلفاز، مما هيأ بعضهم، ربّما، لتصديق أفلامٍ: الرجل الحديدي، وجونكر، وصراع سفن الفضاء.

أما كبار السنّ. فكانوا. يكتفون بالتحديق من شرفات منازلهم المطلّة، في الفضاء المنصوب فوق هضبة الجولان كخيمة خاصة، أو سرادق لأعمال قتالية وصراعات حقيقية، إلا أنها تتشابه كثيراً مع أعمال الخفة والحيل والتضخيم، وهذا ماصرّح به بعضهم، متلجلج الصوت، على مسمع عساكر موقعنا بينما هم يتبضّعون بعض حاجاتهم الخفيفة من دكان القرية غير النائية نسبيّاً عنا.

وإذا كان الوقت شروقاً أو غروباً وضعوا أكفهم المتعبة فوق عيونهم على الجبين، ليتّقوا أشعة الشمس، وليحققوا رؤية أفضل للمشهد. دون أن ينالهم تعبٌ أو سأمٌ أو خوف.

كان منظرهم ذاك، ومايندٌّ عنه من حركات وإشارات، يتكرر في ناظري من خلال مراقبتي للجوّ والأفق المتصل معه، في البعد، بالنظارة المزدوجة المقرّبة. وكنت أمسح كل يوم، عدة مرات، بهذه النظارة القرى المطمئنة القريبة من الموقع الذي أعمل فيه، من التي تقع في مرمى البصر

المباشر، وكم كنت أخاف على هذه القرى، ولو ملكت الوصول إلى أولئك القرويين الذين يرقبون المعارك الجوية خاصة، من أعالي المباني، لتقدمت إليهم بالرجاء، بأن ينزلوا إلى الملاجئ، ويحفظوا أنفسهم من الأخطار. أما الآن، فإني بجانبهم مباشرة. أو بينهم. تقف نسوة بدا عليهن الكبر والوقار، إلى جانب الطريق الذي يشقّ القرية الصغيرة نصفين، كنَّ يفركن الكفّ بالكف، أو يضربن الكفّ على الجنب، معبراتٍ بقلوب رقيقة مختلجة بين شفافهن، بكلام مهموس، أو نصف مسموع. عن مشاعر مختلطة. تندب امرأة عجوز:

ـ يا ويلاه، يا حرام، يا ويل أمِّهِ عليه. كائناً من كان.

تقول امرأة ثانية أقلّ عمراً:

ـ آ، صحيح، ذكرتُ، أرأيتِ البارحة عند الغروب كيف شقَّ الصاروخ السوري، السّام، الجوّ بدربٍ أبيض، كأنه درب التبانات، نحو طائرة فانتوم إسرائيلية يا خالة؟ وكيف قذف الطيار بنفسه بالمظلة، قبل وصول الصاروخ إلى طائرته بطول حبل؟ لاندري هل وصل الأرض حيّاً أم مات؟ وكانت المرأة تبتسم.

وتجيب العجوز:

ـ في كل حال. المسكين. له أم، أو زوجة وأطفال ينتظرونه بفارغ الصبر. الله... على الحرب ـ يا ويلي على كل أم!!!

وتجيب شابة متحمّسة:

ـ بل هذا مايجب أن يحصل يا جدتي، لا حرام ولا من يحزنون، الله على المعتدي، وماذا يفعل الطيار الإسرائيلي في سمائنا؟ ومن طلب إليه أن يقفز بمظلة فوق أرضنا ويجعلنا نبحث عنه وعن سلامته يا

خالة؟! وهل تظنين أنه خرج في سباحة جوية أم ليلقي قنابل الموت فوقنا؟!!

كانت سيارتي العسكرية قد توقفت في ساحة القرية. مذ بعض الوقت بسبب عطل فني طارئ وبسيط. فقد لاحظت ارتفاع درجة الحرارة على عداداتها، وأحببت فحص الزيت والماء، وربما شككت بخلوّ المبرد من الماء النقي، فتوقفت راغباً بتبديل الماء من صنبور للماء العذب في وسط ساحة القرية، كنت أعرف نقاوة مائه الجبلي من قبل.

كنت، صبحَ ذلك اليوم، قد اجتزت عدة قرى جولانية باتجاه العاصمة دمشق، في مهمة خاصة.

لم أشاهد أي مصوّر للتيليفزيون على طريقي، وقد توقعت أن أشاهد الكاميرات منصوبة على أسطحة الجوامع والكنائس والمدارس. لكن شدة المعارك، وجنون القذائف، وصفير الصواريخ، والتحام الحديد بالحديد، قد منعت قدوم المصورين فميا يبدو. ولم يبق غير التصوير الجوي قادراً على التقاط المشاهد الفريدة المرعبة، في الجو وعلى الأرض، وحتى التصوير الجوي نفسه غير بعيد عن المخاطر، فهو من جملة الأهداف الجوية التي يتناوشها الطرفان.

أما التصوير بواسطة الطائرات المقاتلة فهو وحده القادر على تتبع المعارك البرية والجوية، إلا أنه يعتبر غير كافٍ، غالباً، وغير قادر على التغطية التليفزيونية المطلوبة والواضحة، في تلك الظروف من المواجهة القاسية. سألت القرويين المتجمهرين كما لو كانوا بانتظرا مأدبة:

ـ هل أنتم تتابعون هذه الاشتباكات يومياً دون أن تخافوا خطر القصف البعيد المدى، أو الجوي المعادي المفاجئ على تجمعاتكم المكشوفة؟! ـ إن هذا السلوك مخالف لقانون الدفاع المدني. أنتم بهذا، تتغافلون حقيقة لا

أخلاقية الحرب. هذا خطر عليكم في كل حال ـ تنبهوا «ولاتلقوا بأيديكم إلى التّهلكة».

أجابتني الشابّة المتحمّسة، متوهجة الوجه، وكانت تلوح سوداء الحاجبين كحيلة العينين. طويلة القامة مثل نخلة، فاحمة الشعر، ترتدي تنورة حمراء وبلوزة زرقاء نقية نقاء السماء، وقد لوت عنقها الطويل فوق كتفها.

ـ هل تعرف شيئاً عن بيوت القنيطرة يا جناب الملازم؟ وقد خفضت ذقنها جهة صدرها.

ـ آ ـ القنيطرة. أنا قادم من هناك. القنيطرة.. نعم. بخير.

ـ أمِنَ القنيطرة أنت قادم بالله عليك؟ أم..

ـ نعم يا أختي. من القنيطرة. مالها القنيطرة؟

فاضت دموع الصبيّة على خديها الوضيئين فجأةً. دون أن يبدو عليها أنها تبكي.

لم أكن أحب التأخر عن مهمتي، وليس عندي وقت أضيعه، وساعات إجازتي من الجبهة محدودة، غير أن هذا المنظر بهرني، وأوقفني مذهولاً، دموعٌ ولابكاء؟ «هل هذه ممثلة؟» ساءَلتُ نفسي.

عدت فنظرت إلى الصبيّة مليّاً، هل أتشجّع فأسألها: هل هي تعمل في السينما أم المسرح أم التيلفيزيون؟

لم تنتظرني الصبيّة طويلاً لتخرجني من حيرتي التي اجتاحتني على مايبدو وربّما ظهر للصبيّة ذلك من وقفتي وشرودي. فقالت مجاذبة ضحكة تتدحرج على صوت خجول:

ـ ومن قلب القنيطرة قدمت بالتأكيد أم من محيطها الخارجي البعيد؟ لاتخجل.

ـ من قلب القنيطرة. تأكدي.

ازدادت الدموع تألقاً فوق الخد الأحمر واختلجت قسمات الشابّة كذلك. بادرتها رفيقة لها بمنشفة بيضاء مبتسمة لها. تابعت الصبيّة:

ـ والقنيطرة! أحقيقة لم تعد في أيديهم كما سمعنا من الإذاعة أم أن الإذاعة؟ لاتؤاخذني، إذاعة...!!؟

ـ لا. لم تعد في أيديهم. تأكدي. والإذاعة حقيقة وغير... كما تظنين.

ـ طيّب، وبيتنا فيها، بيتنا على الشارع العام ـ الطريق المار من وسطها، بعد الكنيسة بعشرين خطوة هل رأيته؟ وهل يمكن أن نعود إليه قريباً إذا كان ماقلته صحيحاً؟

كان صوتها يزخّ حرارة دموعها. بل وملوحتها في أحاسيسي، قلت على الفور:

ـ آ، آ، إن شاء الله، إن شاء الله، ستهدأ المعارك عمّا قريب. وبعد هدوء الجبهات ستستطيعين.

لكنني بادرت إلى استدراك هذا الوعد فوراً، فالقنيطرة مهدمة، ولابيوت فيها من يوم أن دخلها الجيش الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧، ثم جرّ البيوت، من أعمدتها، بالبالدوزرات، ويجب أن أكون صادقاً مع الصبيّة:

ـ يا أخت، البيوت، كما قد تعلمين، مهدمة، كذلك بيتكم، رأيت كتل الباتون والأعمدة المكسورة متناثرة، كذلك رأيت أسطحة بكاملها

مطبقة على أنقاضها، وهي غير صالحة للسكن الآن، فيما بعد، تبنى من جديد إن شاء الله، وتعودين إلى بيتك، وذكريات طفولتك فيه. وتابعتُ: لكن يجب الانتظار بعض الوقت، فهي الآن مازالت منطقة عسكرية في خرائطنا. إنّما ليس فيها يهود أبداً. تأكدي. لقد أخرجناهم.

ـ أخرجتموهم كلّهم؟ متأكد؟

ـ نعم متأكد، وسيخرجون من مناطق أخرى، أو هم خرجوا للتوّ. وسيخرجون من كامل الجولان، وأخبرك أيضاً بأن طلائع الدبابات السورية وصلت مشارف بحيرة طبريا. وحياة عينيك التي ما حلف بهما إنسانٌ كاذباً إلّا وحلّت به مصيبة. ابتسمت الشابة من تحت جفون مبللة فبدت كشمس تشرق والجوّ مطير. تقدمت مني. ظننت أنها ستعاتبني على إطرائي الذي فاجأتها به دون أن يكون بيننا معرفة سابقة تسوغ ذلك، لكنها مدت يدها إليّ، مددت يدي بدوري، شدّتْ على يدي بقبضتها المحمّرة الممتلئة قائلة:

ـ شكراً أيها الملازم. لقد أعدتم قلوبنا إلى صدورنا، وكانت قد قفزتْ منها منذ السادس من حزيران ١٩٦٧ م. نحن نحب الرجال الأشداء الذين لايسلمون بحرمهم وبيوتهم وحواكيرهم رخيصة للأعداء ونحتقر المتخاذلين والمدّعين.

تنحنحتُ، ازداد تأثري بصوت الشابة المجروح، وصرت أهيئ الإجابات تهيئة قبل النطق بها، أردت الكلام. لكن الشابة لم تهملني طويلاً فقد تابعت:

منذ عام ١٩٦٧ ونحن، أبي وأمي وأخواتي نعيش بلا بيت نملكه، ضيوفاً على الأجواد، ولكن نشعر بأننا لاجئون، مع كل مانحاط به من

اهتمام. تكاثر الناس من حولي، كان لابدّ من التحرك، فمهمتي ليست هنا.

اتجهتُ إلى السيارة. ولم أكد أضع يدي على مقبض باب كبين القيادة حتى أهوَتْ الشابّة اللطيفة على كتفي بأصابعها الطرية:

ـ يا حضرة الملازم، لقد أعدتم لنا الثقة بالبلد، بالجيش، لم نعد نخاف. نخرج إلى الأسطحة والحارات، بينما الاشتباكات الجوية دائرة من فوقنا. وأنت تعترض؟

ـ نعم، ففي هذا مخاطرة غير محمودة العواقب يا أخت.

ـ فرجةٌ يا جناب الملازم لايمكن أن نفوّتها، نتفرج كل يوم. لأن قواتنا هي التي تطارد قوات اليهود وتهزمها، على الأرض وفي الجو أيضاً. وليس كما حصل في حزيران ١٩٦٧م.

ـ يمكن سماع الأنباء من الراديو. أو قراءتها في الصحف دون أن يعرّض الإنسان المدني نفسه للخطر.

ـ وعيون الأطفال والناشئة والشباب؟ أنحجبها عن التقاط صور ومشاهدة هذه الاقتحامات الرائعة، الفذة، الكاسحة التي ينزلها إخوانهم الشباب المقاتلون بجحافل الغزاة والمحتلين فيهدمون بها عمر من هدم القنيطرة؟

ـ يمكن للأطفال أن يشاهدوا صور المعارك في الكتب مستقبلاً، مثلاً. أو المجلات أو التلفاز، وحماية الطفل من الرعب ضرورية يا أخت.

ـ إذا لم يشاهد الأطفال هذه الصورة الحية الخلابة عن الشجاعة والإقدام والانتقام للشرف والجرح اليوم فمن يستطيع إحياءها لهم في المستقبل؟

تابعت الصبية بشخصية محاضر لاينقصه إلا قلم الطبشور والسبورة:

ـ ربما ادّعاها اليهود فيما بعد لأنفسهم كما ادّعوا سواها... لذلك يجب أن يراها الجميع وبكل عينٍ مفتوحة، وأذن صاغية ولو سقطت ضحايا، حتى. إنّ دعايات اليهود قد تستطيع مستقبلاً أن تقلب الصدق كذباً، والكذب صدقاً في عيون الأحفاد. أما إذا نقل الأولاد اليوم الصور بالعين المجردة إلى من سيليهم، وهؤلاء إلى أحفادهم، فإن الصور تصبح من الأرشيف الاجتماعي، ومن المواريث والتراث الذي يعطيه كل جيل للذي يليه. فالمفاخر والأيام يجب أن تبقى قائمة في الأذهان لتبعث القدرة على النهوض يوم يدعو الداعي.

ـ يا أخت بارك الله بك. أنا وقتي ضيّق. عسكري كما تلاحظين. لن أنسى موقفك الرائع هذا في حياتي وتعليقاتك الجديرة بالملاحظة.

ـ كلمتان. بقيتا تحت لساني أيها الملازم، مهلاً:

لاتنسَ، يجب أن تورَّث الصور والمشاهد مثلما أو قبل المدوَّنات.

ـ أنا أسألك يا أختاه. هل تعملين مراسلة صحفية وأين عدستك عما يحدث؟ رنت الصبيّة إليّ ببرود. لقد أصبحتُ أكثر يقيناً بكون هذه الصبيّة، بهذا الوعي والديناميكية، وبهذه النظرية في توظيف الصور الحية، ولغة الصور لمصلحة الصمود والكفاح، أكثر يقيناً بأنها غير قروية ولو وقفت بين القرويين وبلباسهم. أعني ليست مجرد قروية.

أجابت الصبية وعيناها تبرقان عزماً وصوتها يصدح كالبلبل:

ـ هل يعتقد جناب الملازم بأن المقهور يحتاج أن يستعير الديباجة من الشعراء أو الصحفيين ليشرح قهره؟ ألا يمكن أن تكون للجسد والأحاسيس والجروح لغة خارقة أخرى أيضاً؟

لم تكدْ الصبيّة تكمل جملتها الأخيرة حتى دوّت صفارة الإنذار

متناهيةً من بعيد، ملتوية بين الحارات. تعلقت عيون المشاهدين عجّزاً وصبايا وأولاد بالأفق البعيد، نظرت فيها ولم أقرأ ذعراً أبداً. ظهر زوج من الطائرات الإسرائيلية المغيرة مقتحماً الأجواء السورية فوق هضبة الجولان، اقترب الزوج أكثر، إنه الآن يحلّق باتجاه جبل الشيخ تاركاً خلفه حبلين متوازيين طويلين من ضباب أبيض مشعّ تحت وهج شمس الصباح.

أهابت بي الصبيّة وفتحتا أنفها تختلجان:

ـ وحياة ربك لن تدير محرك السيارة قبل أن ترقب معنا المشهد. إنه يتكرر هنا منذ أيام ولكن أحب أن تشاهده معنا للذكرى ـ الصواريخ السورية، صواريخنا، ستنهض حالاً من السهل لملاقاة الطائرات المغيرة. انتظر لحظة. ترقّب. إن توقعي لن يخيب. فنحن ألفنا المشهد هنا وأصبحنا ننتظره.

للتوّ، ينهض صاروخ سوري بذيل أبيض كمناديل الأولياء. محلّقاً باتجاه أقرب الطائرتين إلى جهته. وكأنه كان يقف رهن إشارة الصبية.

أرى الآن بأم العين. كما يرى غيري من كل خلق الله في هذه المنطقة، أو غيرها ممن يصدقون عيونهم أكثر من الدعايات. الطيار ينقذف، بمقعده القاذف، فوق قبة الطائرة قليلاً، قبل أن يصل الصاروخ إلى الطائرة بمسافة واضحة للعيان.

يدور المقعد في الفراغ دورتين، ثلاثاً، المظلة تنفتح، الطيار يتأرجح، يهبط نحو الأرض. مظلة ثانية تنقذف، تدور حول محورها. تنفتح في الفضاء... أيضاً.

ـ إذن الطيار الثاني «لم يحاول ملكاً أو يموت فيعذرا» تغنيت رافعاً صوتي ببيت شعر امرئ القيس، الشاعر العربي المشهور.

الطائرات تتحول إلى مرامد بيضاء، ثم هباء منثوراً، حيث واقعتها الصواريخ في كبد السماء ـ تاركة المظلات تهبط يتيمة إلى الأرض.

ويتابع القرويون سقوط الطيارين الإسرائيليين بالمظلات، مفتوحي الأعين والأفواه، ممطوطي الأعناق بصوت جماعي منوّع الطبقات، يتفطر اندهاشاً... أو تشفياً... معلقين:

ياه، ياه!! (خرجهم الله لايأوّلهم)[1].

على طريق الجولان

في ١٢/ ت١/ ١٩٧٣م

١ ـ لايأوّلهم: عبارة دعائية باللهجة العامية السورية وتعني أنهم يستحقون ماجرى لهم. ولايتولّاهم الله برحمته.

بطاقة معايدة في يوم الغفران

كان رفاقه يزورونه في المستشفى العسكري مهنئين بالسلامة من جرح مع كسر في مشط القدم اليسرى، وقد بدا مشرقاً متفائلاً، مما شجع بعضهم أن يسأله:

- ارو لنا، إذا سمحت، طرفاً من معارك الدبابات.

كان النقيب جهاد قائداً لكتيبة الدبابات الثانية من اللواء المدرع الثاني منذ الساعات الأولى للقتال على الجبهة السورية، إلا أنه لم يكن يفخر كما يفعل بعضهم حيث تروق له الفخفخة، فلاذ بالصّمت.

تكرر الطلب، يسرّنا أن نعرف شيئاً عن جنودك.

- عن جنودي؟ طيّب.

كان اليوم التاسع من تشرين الأول أكتوبر ١٩٧٣ المدرعات السورية تطوق القنيطرة وتستمر في التقدم. رأينا على القوات الإسرائيليّة ظاهرة التردد واضحة:

هل يستمرون في المقاومة أم ينسحبون؟

كان جنودهم يفضلون العودة كما صرّح أسراهم فيما بعد، لكن إنذاراً بالرمي بالرّصاص أصبح يلجم خطواتهم، كما أدلَوا لنا حانقين:

- «كانوا يأمروننا بالثبات باستمرار - ولو متنا جميعاً هنا، نموت نحن، نعم، لكن ليحيَوْا هم، وليعيش أعضاء الكنيست برفاه ونعيم على عظامنا».

كان البارود ينعقد غمامات فوق الجولان، أصبحنا نبصق بصاقاً أسود. زئير المدافع، سعال الرشاشات، صفير القذائف. صراخ الصواريخ. انحطام الحديد، انفلاق الصخور، رعد الطيران، منوعات غنائيّة حلت لدينا محل برنامج: مرحباً يا صباح، من إذاعة العاصمة دمشق.

كنت قد اخترت أن أكون في السرية المدرعة الأولى. كانت السرية تميز مدرعات العدو المتمترسة بمرابضها وترميها بعنف. كانت الإصابات واضحة. إلا أنَّ مايثير الأعصاب أنّ دبابات العدو غير المصابة لاتتراجع ولاتضرب، كما يُفترض وكما يتوقّع.

- هل هي هيكليّة؟

- خدع عسكرية؟

تساءَلَ الرماة المهرة.

- ركزوا نيرانكم وصوبوا عليها من جديد. مهما كان نوعها. نبهتهم.

- هاقد تحركت دبابة معادية من الطرف اليميني للتشكيل المعادي. إنها من طراز سنتوريون التي يعتمد عليها سلاح المدرعات الإسرائيلي كثيراً، أعلن الراصد. شاكر، بنبرة فيها بعض الهلع.

- إذن هي خدعة، يا للماكرين، أعلن الجندي حمدان.

تلقيت أمراً لاسلكياً من قائد التشكيل الصديق بالرمي من الحركة أثناء عملية الاقتحام التي كلفنا بها. ألححت على قواد الدبابات وعلى الرماة أن يحسنوا المناورة ويولوها اهتمامهم، بالحركة والنار. وذلك حتى يمكن تفادي ضربات دبابات العدو المتمركزة خلف سواتر ترابية كثيفة ومعدّة مسبقاً، كما عينت مكان دبابتي لهم، مقدمة الجناح اليساري المتقدم.

ضحك أحد الرماة ضحكة فيها شيء من قلة الانضباط، لم أشأ أن

ألومه لكني سألته:

ـ لِمَ تتهاون ونحن نقابل السنتوريون؟

ـ أنا لن أناور يا سيدي، الطريق المستقيم أقرب الطرق إلى النهاية.

ـ هذه إجابة غير عسكرية. أنت هنا ملزم بتنفيذ خطة عسكرية كما تعلم.

ـ العدوّ لن يضربنا الآن يا سيدي.

ـ الخطة العسكرية لاتُبنَى على التخمينات، العدوّ قد يضربنا في أية لحظة، الآن، الآن، قد.. ويجب أن لايحرفك تفاؤلك عن إمكانية وقوع الخطر، صحيح أننا حتى الآن لم نُصَبْ، والعدو مازال يتقهقر، لكن لكل ثانية في المعركة مفاجآتها، تذكّرْ أنَّ طلقات السنتوريون ليست من المطاط المنفوخ بالهواء.

ـ سأناور يا سيدي، وأُحرَم من لذة سرعة الاقتحام، لكن أنا أراهن على أنّ العدو لن يضرب.

تقدم التشكيل الصديق، كان بعض الدبابات: يناور، بجدارة، بالحركة وبعضها بالنار والحركة.

هاقد طار برج دبابة معادية، ثانية تضطرم فيها النار ـ ثالثة... رابعة... خامسة مازالت تقاوم مقاومة وانية متقطعة. بعض الدبابات المعادية إلى اليمين تفتح نيراناً غريزية.

ـ إذن لقد فهمنا، إن الطلقات خير ترجمان لأعصاب من يقف خلفها.

أعلن حمدان بأعلى صوت والبهجة تغاوي صوته.

تابعنا مهمة الاقتحام، انتهت المهمة الأولى بالسيطرة على خط دفاع العدوّ وسقطت بعض دباباته الجاهزة أسيرة، عند فحصها لم نجد فيها جندياً واحداً، لقد هرب الجنود وأخلوا دباباتهم إذاً. إلّا أقلَّهم، ومنذ بدء

الهجوم الكاسح في الجولان المحتل.

ـ لكن ليحتلوا منطقة دفاع خلفيّة مجهزة بصواريخ مضادة للدروع كونوا على حذر أيها الشجعان. خاطبت المقاتلين.

ـ إنهم يجيدون القتال من خلف المساتر والدروع. عقّب حمدان متوعّداً، وهذا دأبهم من يوم حصن خيبر. ثم صرخ فجأة:

ـ يا إلهي، يا إلهي...

دبابة إسرائيلية وبها طاقم من الأحياء، إنني أراهم بالعين المجردة، أقصى اليمين للتشكيل المعادي، إنهم يتأهبون ليطأوا الأرض بأقدامهم.

ـ هذه دبابة فوجئت، أو كان بها عطل ميكانيكي. أو انتهت ذخيرتها. ضعوها رهن المراقبة الآن ولاتطلقوا عليها.

ـ أو أرادت أن تسقط أسيرة، أو أن جماعتها أحبّوا استخدامها كسيارة نقل، علّق حمدان من أعلى برجه.

ضحك كل من على ظهر الدبابة، وهل من دبابة في الدينا تريد أن تسقط أسيرة؟

ـ نعم، أجاب حمدان، لم لا، فلربما كان قائدها صادقاً مع نفسه، فهو لايريد أن يموت في هذه المناسبة.

ـ هراء. كرر بعضهم هراء يا حمدان، هاي المرة فاتتك الفطنة.

ـ لماذا هراء؟ تابع حمدان وعقّب:

سمعت البارحة أن طياراً إسرائيلياً هبط بطائرته الفانتوم القاذفة، الأسرع من الصوت، والتي تحمل صواريخ بعيدة المدى وقنابل من وزن ٥٠٠ كغ، وما أعرف إيش، بعد أن ضرب الفشك الخلّبي الأخضر. هبط في أحد مطاراتنا العسكرية، وهذا كما هو معلوم في الحروب إشارة

الإستسلام. أو الصديق كما هو معروف في الأصل، عندما يفقد الطيار شيفرة التعارف.

ـ طيب، انتبهوا الآن. أخلوا جرحاهم أولاً، ولتنهض دورية بإمرة العريف /عارف/ تحضر ذلك الطاقم المعادي حيًّا، مع حمدان، وحسن أيضاً، تيسّروا.

تقدمت الدورية، راجلة حيناً، منبطحة حيناً، واستطاعت أن تحضر الطاقم بدون أن تتعرض لمقاومة، وقد رفع أفراده الأيدي مشبوكة فوق الرؤوس، وتقدموا القرفصاء.

قدَّمهم العريف إليّ: قلت على الفور:

ـ لِيُجْرَ عليهم التفتيش المعتاد إذاً. وليعاملوا معاملة الأسرى. وفي نقطة شؤون السرية أعطوا ملابس جديدة غير الملابس المتسخة أو الملفوحة بالنار التي كانت على أجسادهم.

بدأتُ بعد قليل من راحتهم. بإحصاء وتدوين أسمائهم وبطاقاتهم الشخصية في سجل خاص، كان اسم قائد الدبابة /افرام/ وهو برتبة رقيب أول احتياط. وقد طاب لي أن أجري معه حواراً عادياً، قريباً من الدردشة أو الاستئناس، لأني قرأت في عينيه ندماً مخبوءاً:

ـ من أي بلد أنت يا مستر إفرام؟

ـ من تال ها شوير، منكس الرأس أجاب.

ـ خذ هذه سيجارة، وأعطوه كاس شاي. ولرفاقه أيضاً:

ـ سنكيو، سير ـ أجاب بالانكليزية.

ـ متطوع أنت؟

ـ بل احتياطي.

ـ وعملك المدني؟

ـ أعمل معلماً للغة الانكليزية في مدرسة البلدة.

ـ ثقافتك؟

ـ درجة معهد متوسط للغة الإنكليزية.

ـ أين حصلت عليها؟

ـ في ميشيسغان، بأمريكا، حيث ولدت، ونشأت، وتعلّمتُ.

ـ ولِمَ جئت إلى إسرائيل؟

ـ قدمني والدي إلى إحدى منظمات «الكيبوتز» التي أخذت على عاتقها تعليم المتطوعين اللغة العبرية، والثقافة الدينية. وهذا تبرع على كل شاب يهودي متدين أن يتبرع بقسم من عمره يعيشه في الكيبوتز أو في جيش إسرائيل عند اللزوم. لكن على مايبدو دائماً /فيه لزوم/ وهذا مالم أكن أعرفه.

ـ إذن أنت متبرع بشبابك للجيش، من أين تحصل على معيشتك؟

ـ أفهمني مدير المدرسة أن ابن اليهودي الغني، يجب أن يتبرع بعمله فكان لابدّ لي أن أطلب من والدي مايكفيني، وهو يرسل إليَّ حاجتي من الدولارات.

وبينما أنا أحصي نقوده في الحافظة التي تضمّ هويته وبعض الصوّر الأخرى سقطت من الحافظة بطاقة معايدة ملونة، تحمل صورة الجنرال «دايان» مع صور لأربعة جنود يمثلون الأسلحة الرئيسية في الجيش الإسرائيلي وقد كُتِبَ أسفلها بالعبرية تليها الانكليزية:

«عام جديد سعيد».

ضحكت عندما قرأت العبارة لتناقضها الصّارخ مع الواقع الذي مُنيت

به البطاقة على الأرض. قلت له:

ـ هذه البطاقة حظها سيء. من أين وردتك؟

ـ من رفيق لي، على جبهة قنال سويس، يعمل مهندساً مدنيّاً.

ـ إذن أنت هنا قبل عيد «الغفران».

ـ نعم.

ـ وهل أنت سعيد بعامك، كما تقول البطاقة؟

ـ اغرورقت عيناه بالدمع: إن البطاقة بمناسبة عيد الغفران، لكن لو لم أكن هنا، لكنت سعيداً ربّما.

ـ أين مثلاً، ربّما ساعدناك!!!؟

ـ مع شوشنا.

ـ من شوشنا؟

ـ إنها صديقة الجنود، قتل صاحبها في حرب ١٩٦٧ على جبهتكم. ثم نذرت نفسها للجندية وخصتني بعطف خاص، فقد رأتني وحيداً هنا. كان من المفروض أن تستدعى للخدمة معنا.

ـ طيب. لابأس. نتمنى لو كانت معك نحن أيضاً، لكن قل لي: ألا تتذكر والديك وتحنّ إليهما؟

ـ رمقني بنظرة فيها حزن وانكسار.

ـ ألم تحاول أن تلحق بأبويك يا رجل؟ وهل في الدنيا مايعادل الأم وحنانها؟

ـ لاأستطيع، فخروجي من إسرائيل ممنوع. سحبوا مني جواز السفر.

ـ تعني لقد سحبوا منك حريتك.

ـ بالتأكيد. هكذا يريدون، ومع الجميع /سيدي/

ـ وماذا قدموا لك ثمناً لسحب هويتك منك؟ وأنت تعمل متبرعاً وتحارب متبرعاً، وأقول: تؤسر... متبرعاً؟ معقولة؟ أتقبلها؟ أيُّ كائنٍ أنت؟

ـ كانوا يقولون لنا: تبرعوا لتحيَوْا بسلام.

ـ كيف يمكن تفسير السلام ببطاقة المعايدة هذه التي تحملها كالإيقونية، ليس عليها صور قديسين كما ألاحظ، إنما صورة جنرال الحرب وجنود الأسلحة المتميزة؟

ـ إنك تحرجني يا سيدي. ثم تصبب عرقاً. وتابع:

لعلّ هذه الأجوبة من اختصاص أعضاء الكنيست، ورؤساء الأحزاب.

ـ إفرام، إنّك تطيّر صوابي. هل أنت أمّعة. بالون بلاستيك، روبوت يا رجل؟ مربوط على ردود فعل معينة، لاتمت إليك كشخصيَّة بصلة؟ أستغرب هذا والله من متعلم يعيش في القرن العشرين. وفي أمريكا تربَّى ونشأ، كيف يقولون: إنها بلد تقدّس الحريات الشخصية وتسعى لها في كل بلدان العالم؟

ـ سيدي، أرجو ـ أ، أ، أنا أعصابي مرهقة. لم أعد أحتمل، لازلت أعتقد أني ميت، كان اقتحامكم عنيفاً لم أتخيّله في الأفلام حتى!..

ـ لاتماطل أنت تستطيع الإجابة، لقد قرأنا تعليقات غريبة في إسرائيل في الصحف والمجلات وبطاقات المعايدة وبعضها تجسَّدَ في الشارع أو المطعم أو البوتيك، وفي أكثر من مكان مشهور في تل أبيب، وغير تل أبيب، وكلها تمجّد الحربَ، لا السلام، وتعزف أنغام التفوّق بالبوق العسكري، عالي النغمة من أمثال:

«كوكتيل الحرب الخاطفة»

و«سَلَطة الأيام الستة»

و«حلويات العصا الغليظة»

و«ملبوسات موشي دايان»

وهل تستطيع أن تنكر ذلك؟ ولمّا صمت وهو يرمقني إشعاراً بالإقرار تابعت: متهكماً: طيب يا جندي «شعب الله المختار» هل سمعت برقية غولدامائير رئيسة دولتكم التي مازال الجنرال دايان نفسه وزير حربها.

ـ لم أسمع. كنت مطووشاً من شدة وقع هجومكم.

ـ طيب اسمع، أنا أسمعك إياها، وستجدها في جملة التقارير الصحفية والوثائق التاريخية لاحقاً. الخطاب من غولدامئير مباشرة لهنري كيسنجر. المستلم مدير حرسه الخاص، طلبت منه قائلة «بعد أن أجابها بأنه نائم»: «أيقظْ هنري كيسنجر الآن، لأننا نريد المساعدة اليوم، فغداً ربّما يكون قد فات الأوان»!!!

تململ إفرام داخل ثيابه كمن عليه عبء يريد طرحه... ثم تنهَّد دون تعليق. تابعت مفنّداً: حتى بطاقة المعايدة، وفي يوم الغفران/ وهو عيد سلام عندكم. سلام وغفران الرّب، تحمل طوابع العنف والقسوة.

هدايا وصور يوم الغفران تحمل صور العسكر وترمز إلى التفوّق والغزو والقهر والإذلال والاعتداد والتبجُّح.

كيف تجيدون الكلام عن السلام وأنتم تصلّون للحرب ولربِّ الجنود؟

كيف يكون السلام وفوهات مدافعكم مفتوحة في ظهور أصحاب الدار؟

لماذا لم يرسل لك زميلك المدني بطاقة تحمل صورة، وردة، شجرة خضراء، حفلة سمر موسيقية مثلاً، راقصة، مغنيّة؟

ـ ألا تعتقد أنني أكذب إذا صرّحت يا مستر؟

ـ قُلْ، بعد القول أعرف، لاقبله. وعلى العموم كذبكم أكثر من صدقكم.

ـ الآن أنا يائس. سأصرّح لك. لقد أقنعونا أيّما قناعة بأننا أقوياء بما يفوق تصوركم، إنّ /يهوه/ يحمي المحارب الإسرائيلي الذي يرفع السلاح ضد الأمم الأخرى، وهو معه. إنه لن يُقتَل، قد يُجرَح. وسينجو، لأنّ فرق الإسعاف جاهزة بالحوامات، المستشفيات في كل مكان، وقد يُؤسر، لكن أميركا ستسعى في فكاكه. وأنت تعلم ما أمريكا يا سيدي كماأفهمونا بأن أمريكا، وتسلّحها الطاغي، مسخّرٌ لنا عند الضرورة، وأن العرب يخشوننا، كما يخشى الفأر القط. وأن العرب مهزومون بتفرّق طاقاتهم، وتضارب آرائهم شبه النهائي.

ـ والآن، يا إفرام، ما رأيك؟ قناعاتك؟

ـ انهار معظمها، وحقّ يهوه؟

ـ كيف ليس لك الحق، استدع يهوه وأمريكا، فأنت في وضع حرج.

ـ لقد تخلّوا عنا، عن رفاقي جميعاً، فقد عاينت أكثرهم ينزفون الدم ولامسعف ولامعين ولامجيب على السماعة، وبعضهم تفحّم تماماً، وآخرون يعانون سكرات الموت وهم يشرئبون من برج الدبابة المحترقة.

وأقول لك بصراحة، إذا تركتني فسأهرب إلى أمريكا.

ـ أما شاطر!!! شاطر. ومقنِع كذلك!!! يا عفريت.

ـ وكنت أنوي السفر قبل اليوم بكفالة مالية كبيرة.

تصور يا سيدي أنني بين القتلى الآن، كيف كانت ستصنع أمي العجوز حين يصلها الخبر؟

بل من سيرث أملاك أبي؟

لقد عرفت بأنَّ ماحاولوا إسكارنا به، خلال الحقبة الأخيرة، هو قبض الريح، فعندما تقف دبابة مقابل دبابة، وتتصدى طائرة لطائرة مكافئة، وجندي لجندي في ميدان القتال، بعيداً عن تبجُّحات الصحافة، ومانشيتات الخطابات الانتخابية، ومداولات الكنيست البيزنطية في أمر الحرب والهجوم على السوريين أو كما يسمونكم أحياناً: الآشوريين، وأحياناً أخرى الصوريين، فإن الأمر يختلف تماماً.

يُجرح الجندي اليهودي، وينزف دمه كغيره من الخلق، وربما يتفحَّم داخل دبابته أو تقصّ عظامه بشظيّة قاسية من قذيفة سورية رهيبة لايمكن دفعها.

لكن كل ذلك لن يساوي شيئاً عند عضو الكنيست الذي يقف متبجِّحاً ليعلن:

الأمور بنتائجها. لقد انتصرنا، المهم حصيلة البيدر. أما القتلى والجرحى والأسرى فينساهم. ثم يركب سيارته الفارهة إلى البلاجات وإلى عشيقاته.

أُعذرني. لقد رأيت حياتي رخيصة لديهم. أنا لاأغتابهم، إنما هذا هو الواقع، لقد بقينا يومين كاملين في مأزق بين الحياة والموت دون أن يتفقدنا أو يردّ علينا أحد. برغم النداءات التي وجهناها إلى القيادات، باللاسلكي. أقفلت دبابتي وانتظرت قدري، لم يكن هناك جدوى من المقاومة لقد اختلفتم عن عام ١٩٦٧ بطول قرن كامل.

لم أشأ مقاطعته، كان يتكلّم العبرية مع الإنكليزية والعربية، وهذا ما أراحني وساعدني في فهم كل مايقوله ويعنيه، كنت أعتبره أنه يمارس نوعاً من الإفضاء، وهذه الحالة مفهومة في علم النفس جيداً. حيث يتم الإفضاء عن أسرار الشخصية ومتاعبها المغلقة لأناس يعتقد المفضي فيهم الحياديّة

التامّة. وفي حال تأكده من غياب الرقيب الاجتماعي الذي كان يحـ
في وسطه وبيئته التي يحيا فيها، يكون الإفضاء تاماً أو معبّراً، بما
الكفاية عن الحالة النفسيّة والمعنويّة للمفضي، وعن /الصندوق الأسـ
الذي يخفي كافّة الأسرار.

ـ قل لي يا صاحبي افرام ـ فنحن جنود كما تعلم، والجندية لها شر
الخاص وشهامتها عبر التاريخ، ولها ارتكاساتها على الأدمغة. ه
الارتكاسات التي تنغرس كقناعات مولودة في الميدان، مطبوخة جيداً ع
جمر التجربة. ما الذي استقرّ في دماغك، وربّما ينفعك في حيا
المستقبلة، حيث تكون الحقيقة صورة يسترجعها الذهن السليم. ويمض
على ضوئها في مسيرته دون عثرات.

أجاب بأسىً ظاهر: إنني وحقّ يهوه، ومهامّد، وعيسو، سأغير طريق
الأرض هنا للسوريين، لقد كرهت، أقول سئمت أن أخرج كل عام ف
عطلتي الصيفية إلى الجبهات. إلى الحفر، إلى التلال والأشواك، والخـ
الساخنة، أوشكت أن أخرج من جلدي قهراً، لكن أين المفرّ، البحر مـ
أمامنا والكنيست بتزمته من ورائنا، نحن مكرهون على فعل كل شيء
وقد يُفسّر العنف الناتج عن التطيّر والحصر بطولةً مقصودة. وهذا غيـ
سليم. ثم تابع ناظراً إليّ بحضور كامل:

ـ هل يمكن للدولة السورية أن تمنحني رخصة سفر إلى أمريكا؟ أ
يمكنني أن أبعث لك دولارات من هناك، كثير. كثير. دخل عيونك.

«كيف لن تضحك وأنت تسمع ذلك: كثيراً كثيراً».

«ألا تعذرني إذا صفعت هذا الذي يحاول أن يرشوني؟ لكن لا، ربما
أكثرهم قد كوّنوا معلومات خاطئة عن نظافة الإنسان السوري، بفعل
الدعاية، حتى لتكاد تكون الدعاية هي الحقيقة. فالأمر كلّه عملية تسويق

وترويج في نظرهم، لاعملية تأرخة وتحقيق وتوثيق». كنت أحدث نفسي. ثم قلت له مؤكداً.

ـ أنت هنا، يا صاحبي أسير حرب، وطقوس الحرب النظيفة تقول بإعادتك إلى حيث كنت، ولكن بعد أن تضع الحرب أوزارها. وحظك حسنٌ جداً حيث أُسرت من قبل الجنود السوريين الشرفاء والشجعان. ولكن لي إليك طلب:

ـ مز مز... يا سيدي.

ـ ألّا تهرب من وجه قناعاتك التي كونتها هنا في مطبخ الحقيقة المرّة،

ـ ماذا أصنع، ماذا؟ أخرج أليس كذلك؟

ـ خرجت أم لم تخرج، عليك أن تواجه من غرّروا بك، دون تردد، وعليك أن تقول شهادة الحقّ عمّا جرى لك هنا، وعليك ألّا تكذب على تلاميذك، وأن تعدّل الخارطة المرسومة على ألواحهم وجلود كراساتهم المدرسية. وذلك حتى لايُفاجأوا مثلك، هناك، أو في مكان آخر، يوماً ما، وبذا تكون قد خدمتهم، ولم تضلّلهم، وأنت معلمهم ومرشدهم. وحافظ وثائق حياتهم.

علّمهم مثلاً أن اليهودي سيُقتل، أو يفطس أصح. عندما يكون معتدياً. ولن ينفعه /يهوه/[1] ولا أمريكا.

وأن أمريكا لن تستطيع أن تمد إليه يدها دائماً. فقد تقصر يدها في المستقبل. وهذا أمر لاينكره التاريخ، فلكلِّ طاغٍ نهاية.

أحرِقْ سيارة عضو الكنيست التي تدور بدم رفاقك.

...

(١) يهوه: رب الجنود عند العبرانيين.

كزَّ إفرام على أسنانه، وبعصبيَّة وغريزيَّة اندفع نحو البطاقة التي تحمل رسم الجنرال دايان وجنود الحرب، يريد تمزيقها. صرخت به:

ـ ابتعد. إياك. ضعها من يدك.

رماها كمن يرمي قصاصة تافهة. هي التي كانت إيقونته منذ لحظات، استقرت عند حذائه العسكري، أبعدها بحذائه عنه، وعقَّب:

ـ لست أدري إن كنت تراني كاذباً، سير، أو ضعيف الروح؟

ـ لا، لا، إفرام، أنت الآن أصبحت واقعيّاً، بدأت تصبح قوياً. لأن القوة هي للحق لاللتزوير، للواقع، لا للأوهام المجنونة، أو الهلوسات.

طلب إفرام طعاماً وشراباً، لأنه كما صرّح لم يأكل ولارفاقه، منذ ٤٨ ساعة. صرّحت لهم بالطعام والشراب. ثم وجهتهم مخفورين، صحبة دوريَّة مسلَّحة راكبة، إلى نقطة تجمع الأسرى على محور القنيطرة إحداثي (....).

عند عودة رئيس الدورية إليّ أخبرني أن إفرام ورفاقه كانوا يكررون طول الطريق، وشواربهم متهدِّلة، عبارة واحدة بالعبرية. تقول:

«دياسّبورا حاداشاه». فما معناها يا سيدي؟

معناها «تشتت جديد». أو «شتات جديد» وهي الترجمة الأفضل.

وهي عبارة مرافقة للتاريخ اليهودي. يا... رقيب سعد.

ودّعه رفاقه المعيدين له معتذرين، بعد أن ناله شيء من التعب. غير المرغوب فيه للجريح.

ترجمة البطاقة العبرية ثم الإنكليزية فالتعليق:

(عام جديد سعيد)

في كل بلدان العالم تكون البطاقات المتبادلة فيما بين الأصحاب في الأعياد تحمل صور أزهار... مناظر طبيعية... فنانات. غير أنها هنا فيما بين الشباب الإسرائيليين تحمل صوراً لجنرالات الحرب ورموزاً لصنوف أسلحة الجيش!!؟

فتصور إلى أي مدى تقلب المؤسسة العسكرية الإسرائيلية مفاهيم الناس في إسرائيل، وكيف توجههم وإلى أين؟

حكى لنا العسكري السَّائق: علي أبو حسين

حكى لنا السائق العسكري علي أبو حسين الذي كان مكلفاً بنقل معدات خاصَّة من الداخل إلى الجبهة السورية الصامدة، بينما هو يدخّن لفافته، ويحك طرف أنفه بسبابته الملطخة بالشحم، ويأخذ قسطاً من الراحة مع شاحنته إلى جوار موقعنا، الرابض بشاطئ الطريق. قال: وعندما عدت إليهم من الداخل وشاحنتي تئنُّ تحت حمولتها تلقَّوْني بالأسئلة الكثيرة عن الأهل والشوارع والحارات والناس. أكدّت وأكدت صدقوني يا رفاق أن أهلكم جميعاً بخير، البيع والشراء والحركة في الأسواق هي هي، لم أشاهد دكاناً مغلقة ولا أحداً يسرع في مشيته أكثر من المعتاد. باختصار ليست هناك أيّة ملامح للذعر أو الخوف أو التشاؤم على الوجوه، بل على العكس هناك ثقة ورضى باديان. وكنت أبتسم لهم وأنا منطلق الأسارير مما دعا رفيقي في الفصيلة، الجندي أحمد الحمود أن يعكر هدوئي بطريقته الخاصة، فالسائق في الكتيبة يسافر ويعود، يروح ويجيء والجندي الرابض على سلاحه في موقعه، يشمّ فيه نَفسَ المدينة والحارة.

قال أحمد: آ، قل لي. لاشك أنك لم تلاحظ كل الوجوه. ربما شاهدت وجوه من ليس لهم أبناء في الجبهة. هل شاهدت أبي مثلاً؟

احمر وجهي ـ رفعت بصري إليه متريثاً:

ـ يا /أبو حميد/، صدقني، كنت أتفحص كل الوجوه، ووجوه الرجال خاصة، بدرجة أدقّ، ولم أقرأ فيها إلا الرضى، هل من المعقول ألّا يكون

لرجل من آلاف الرجال الذين قابلتهم. ولدٌ. أخٌ. نسيبٌ في الجبهة يا رجل؟ الناظر في وجوههم كالناظر إلى وجه أبيك، بلحيته البيضاء، في القرية، فهو أب منهم ومثلهم في كل مكان من سورية.

ـ طبعاً من غير المعقول. أجاب أبو حميد مبدياً جديته، ثم أردف بشيء من المكر الذي أعرفه عنه عندما يلغم أمزوحته.

ـ لكنك أغفلت أن تذكر لنا أنك كنت تحدِّق في وجوه النساء ولاسيما الشابات الأنيقات بصورة أدقّ، وربما صرفتك وجوههن المليحة حتى عن رؤية الشارع والدكاكين، مارأيك يا زعيم؟

فرقعت ضحكات عالية من هنا وهناك. تدخَّل أحد الجنود:

ـ هذا هدف رائع سجله عليك في المرمى الأخ حمود يا حضرة السائق. وحارس مرماك سقط أيضاً بالضربة الرهيبة، أو كان غافلاً. ويا غافل لك الله. فركت ذقني وأخذت نفساً طويلاً من سيجارتي ثم عطست، كما يفعل بعض المدربين عندما يتلقى سؤالاً يحتاج معه إلى وسيلة إيضاح لاتقع تحت اليد. عقب الجندي نايف:

ـ هذه شهادة كذلك، ابن حلال يا /أبو حسين/ فالعطسة تشهد على صاحبها. تكلم لنا إذاً، ولن تتكلم بغير الصدق، نحن نصدقك، هات ماعندك عن وجوههن الحلوة وأثر الحرب عليها، بعضها يحلو عندما يذبل قليلاً. لاشك أن كثيرات منهن لهن أحباب في الجبهة.

كان الجنود، أعني رفاقي، يقضون استراحتهم في مكان خلفي، وقد انضممت إليهم مستأنساً بروحهم ونكاتهم الملتهبة بروح الشباب. قلت: أنا لست شاعر غزل يا شباب، صحيح أنا قوّال عتابا وأنا أحبُّ ـ وأغني العتابا لهنّ أكثر مما يغني محرك سيارتي للطريق الناعمة السهلة. إلا أنني أستغفر الله أن ألطّخ تلك الوجوه البريئة، المستبشرة. من بيضاء وسمراء

وشقراء، بشيء لايليق في مثل هذا الموقف المقدَّس.

حركت جديتي عواطف رفاقي الطيبين. لقد راق لهم تحفُّظي أكثر من تماديَّ هذه المرّة، كأنّ أخلاق الناس في الحرب، تتجدد هي أيضاً وتمتحن. وتصقل وتتشذّب، ماقولكم؟؟؟؟

بصوت ليس فيه ظلال الاعتذار قال الجندي نايف:

ـ صدِّق يا /أبو حسين/ لم نقصد شيئاً، وإنما نحب أن نعرف شيئاً عن أعصاب النساء. فالرجال قد يسيطرون على أعصابهم بدرجة أعلى، ألم تلتقط عيناك صورة: لأمك، لأختك، لجارتك... بينما هي تقف على أخبار القتال من المذياع، أو من المحطات المعادية. أو من هدير الطائرات في السماء؟ كيف تسمع وهي مستندة بكوعها إلى كرسي أو مسند فوق المدّة وهي ساهمة؟ قلت متنحنحاً:

ـ أيوه صحيح، أنا معك، ولكن هل نسيت سلوك جدتنا الخنساء، وأختنا خولة بنت الأزور؟ ثم سقت إليه كل مخزوني من القراءة والتاريخ في الصف السادس الذي أحمل شهادة تحصيله في جيبي، حتى أواجه بها المنكرين لمعلوماتي عند اللزوم.

ـ آه لم أنس. ولكن هل من المعقول أن يضم زماننا فارسات مثل اللواتي بلغتنا أخبارهن أيام زمان يا رجل؟

ـ ولماذا لا، أجبت محتدّاً.

وإنني أرى صخراً والقعقاع بينكم، رابضين، وفي سلاح الطيران والمدفعية والدبابات كذلك، فلِمَ لاتوجد أخوات لكم مثل خولة؟ والوالدة التي تنجب الشاب الشجاع لابدّ تنجب الفتاة، أخته الشجاعة أيضاً؟ تدخل رقيب الزمرة ليحسم النقاش كالعادة في الأمور المستعصية وبلهجة حلبية قال:

ـ يا شباب، عاطفة الأم، الأخت، الجارة، كرمى لخاطرك، تجاه الأبناء، لايمكن أن تكون إلا هي هي لدى الخنساء وخولة كما لدى أبسط امرأة في الدنيا إن الأم يا شباب. تحب أن ترى ولدها دائماً، فهو قطعة منها، وعندما تحسّ ألّا بدّ من مغادرته للعش. دفعاً لمغرم أو طلباً لمغنم، كما يعبِّر الأدباء. تطلقه من يدها كما الفارس الذي يطوِّح بالرمح في وجه خصمه. فهو يدفعه ليجذبه من جديد إلى صدره، إنه مثال على العاطفة والضرورة في قلب المرأة، أمّا كانت، أو أختاً أو زوجة، أو عروساً.

....وتابع الرقيب الحلبي:

إن الخنساء أطلقت أولادها إلى المعركة في سبيل الإسلام بكل إرادتها، ثم بكتهم بكل إرادتها أيضاً. حتى عميت عليهم بكاءً. ثم قالت قولتها المشهولة: «الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو أن يجمعني وإياهم في مستقرّ رحمته». وهذا مرّ معكم جميعاً في دروس السادس في التاريخ، صحيح؟

قلت فرحاً متحمساً، وقد انبسطت أسارير وجهي الذي سال منه العرق ممزوجاً بالتراب الأحمر. وهو غبار تربة الجولان.

مسحته بظاهر كفي، وفرحت بمساندة الرقيب لي:

ـ بشرفي. العسكري يا حضرة الرقيب، لن أكذب عليكم بحرف، وقد دفعَتني، حضرتك، بتحليلك الجميل لأن أحكي هذه القصة التي رأيتها بأم عيني في مدينة «حماة» وأمام مركز تجمع في المدينة.

تعلقت الآذان في الاستراحة الليلية لجنود المدفعية الصاروخية في الجبهة السورية بشفتيّ، وعبَّ كل عسكريّ آخر جرعة من كأس الشاي دفعة واحدة. لقد تحمسوا للحديث.

تابعت آخذاً باهتمامهم، منتصب الرّقبة عالي الصوت كمعلمنا في المدرسة عندما كان يصحّح درس الإملاء.

ـ مثلما أنا الآن أمامكم، وعدت إليكم عبر حماة وحمص، النبك ودمشق ومثلما هذا اليوم هو يوم مشرق من شهر تشرين الأول /أكتوبر/ ١٩٧٣ م.

ومثلما نحن في جبهة الجولان، ومثلما أنتم ضربتم تحصينات العدو، وفككتم أسر القنيطرة، ومثلما اليوم، قبيل الغروب سحقت صواريخكم ذات الذيول البيضاء الفاتنة طيران العدو، ومثلما تستعدون في الغد للهجوم على العدو، مثلما هذه كلها حقائق عندكم، تكون مشاهداتي التي سأسوقها لكم الآن حقيقة قائمة هذا اليوم:

ففي الساعة العاشرة صباحاً، دوّت صافرات الإنذار في سماء مدينة أبي الفداء، السورية، (حماه) التي تتوسد صدر سهل العاصي، كان حديث الناس يدور حول قصف العدوّ لمصفاة البترول في حمص، والذي تم قبل يوم. لكن آثاره باقية في الأجواء. اتخذت يمين الشارع وتوقفت، بقاطرتي الثقيلة المشدَّرة.

كان الشارع يزدحم بالخلق: ناس بقنابيز بيضاء، ناس بطرابيش، ناس بجلابيات ناس بقميص وبنطلون، سيدات بلباس أسود، صبايا، بالملوّن، أولاد، شباب معطرون. عمال بلباس أزرق. خفضت بلّور الكبين لأسمع أحاديث الناس من كل جانب. ويا خسارة، ماكان معي مكنة تسجيل لأحضر شاهدي معي، إنما أنقل إليكم من الذاكرة مقتطفات من أقوالهم المتطايرة في الهواء:

ـ قاتلهم الله، لم يرعَوْا حرمة المناطق المدنية الآهلة بالعمال. وحوش.

ـ أي يا شيخ، هم يريدون بتر الأيدي العاملة حقيقةً. شيء واضح.

ـ سيردّ الجيش لهم الصاع صاعين، انتظروا قليلاً.

ـ الله يستر على كل حال.

ـ هل يُستبعد أن يضربوا سدّ الرستن ويعرضوا مدينتنا للغرق؟

ـ فشلوا أول مرة، والفشل ثاني مرة محقق، تفاءل شيخ طاعن في السن بلحيته البيضاء المرتجفة.

ـ رجالنا شجعان، أين أبطال السماء والأرض إذن؟

ـ الله يغضب عليهم، ويهدّ بطرهم، نطقت سيدة عجوز تلبس الأسود.

ـ يخرب بيتهم، لولا أمريكا لما كانوا شيئاً بالنسبة لنا، قال شاب وهو يهزّ سلسالاً أبيض بعصبيّة بين أصابعه، الأنذال، ورمق الأفق بغضب، مكشِّراً.

انتهت الغارة ـ أعلن بوق الانذار. تتابعت الأصوات على أذنيّ:

ـ وين ضربوا، العكاريت؟

ـ يقال لم يستطيعوا أن يضربوا. ارتفع طيرانهم في الجو كثيراً، وتجاوز سرعة الصوت. أقلعت أسراب الطائرات من مطار حماه، يقودها الأشاوس الذين ما تساوي حياة واحدة عنده ريشة طير يا شيخ، لو كان بيد هؤلاء المغاوير عتاد أمريكا الذي بيد العدوّ لخلعوا إسرائيل من أسفلها والله.

ـ ولكنت سمعت طقطقة شروشها في شرق الأرض وغربها أيضاً. عقب صاحب بدلة زرقاء...

ولاحظت أن حديثهم بعد نهاية الإنذار أكثر جرأة وحماسة وثقة.

تابعت العرباتُ المسير...واضطررتُ للإقلاع بسيارتي الثقيلة، لكن الشارع مليء، توقفت إشارة المرور، توقفتُ. تابعت الأصوات المستفَزَّة هياجها:

ـ يجب أن نرصد كل مانملك في سبيل ردّ كيد المعتدي.

ـ يجب أن نرصد أنفسنا وأبناءنا للخلاص من هذا العدو اللعين الذي لايفرّق في عدوانه بين مدينة ومدرسة أطفال و... قلعة.

كان اللغط يعلو كثيراً، وقد عجبتُ كيف لم يهرول أحد إلى الملاجئ. مع أن الصافرة كانت مدويّة من قبل والسّير متوقف، ودخان مصفاة حمص مازال يغبّر فجاج السماء. وأنباء أخبار هجوم العدوّ على شارع أبي رمّانة وسط العاصمة السورية ومقرّ السفارات الأجنبيّة ـ مازالت تتردد على الألسن وفي الإذاعات العالمية كافة. والآن السائق يسألكم، أما جاء دوره؟

هل عدم ذهابهم إلى الملاجئ يُفسَّر بالاعتماد على القضاء والقدر والتسليم له؟

أم بالغضب الذي ملأ صدورهم. فأنساهم أنفسهم؟

أم بالخوف الذي يفرمل الأرجل أحياناً ويلجم الحركة؟ فتعروها البهتة؟ رمقتُ، من وقفة معلّم، مستطلعاً رفاقي الجنود؟ ولكنهم لم يردّوا على واحد من الأسئلة.

قال أحدهم ـ نتركها لك، فأنت كنت تراهم، يا لبيب.

ـ لاتهزأ. نعم اتركوها لي. إن عدم اتجاههم إلى الملاجئ كان يشهد على ثقتهم بكم. بسلاح الدفاع الجوي خاصة الذي برهن المرّة بعد المرّة على أنه كفؤٌ جداً لهذه المهمة الصعبة.

ولأني كنت أسمع أحاديثهم المتطايرة في كل تجمّع، وأقوالهم من مثل:

ـ راقبوا طائراتنا.

ـ انظروا ذيول صواريخنا خلف طائراتهم. تحشُكها حشْكاً.

ـ توقعوا هبوط طيار إسرائيلي بالمظلة يا شباب.

ـ من صاحب الحظ السعيد الذي سيلتقطه أولاً؟

ـ كثيرون منهم راقبناهم. ألقوا بأنفسهم بالمظلة. قبل أن يدخل الصاروخ في الطائرة بوقت غير قليل.

وبعدين يا شباب؟

ـ هل تسمحون لي بسيجارة حموي (فلت). فقد نشف ريقي.

ـ تفضل هي جاهزة. نطق العريف خلدون. تكرم عيونك يا /أبو حسين/ كانت الأنوار الكاشفة بدأت تتلوى فوق الدّشمة التي تجمع فهيا الجنود. قال أحد المقاتلين:

ـ أكمل ولايهمك. حديثك أشهى من سلة عنب مورّد قطفت لتوّها من كروم «محردة» والأنوار الكاشفة لاتروعنا. فلنا بها سابق معرفة وتدبُّر. حدِّث عن المدينة. نحب أن نعرف رضى أهلنا عنا. رضاهم غذاؤنا.

ـ أمركم. سأكمل. اسمعوا:

.... وكنت أنتظر دوري في إملاء خزان الوقود ثم التأشير على الدفتر ـ المهمة. من المحطة، كان هناك حبل من الشباب يتحرك، وسط الحبل نشب عراك بين شابين، واحد يحاول أن يأخذ دور رفيقه في الرتل. اعتقدت أن في المدينة أزمة خبز، سكر، أدوية، تدخَّل رجال الأمن العسكري بين الشابين بسرعة، عاد الرتل إلى الهدوء، تقدمت من أحد الشباب وسألته عن سبب العراك مبدياً أسفي وامتعاضي، قلت، متلطِّفاً:

ـ أمن أجل رغيف خبز يحصل هذا؟ لِمَ لم تحصل النخوة في التوجّه إلى الجبهة وملاكمة العدو مثلاً؟

قال الشاب وقد غرس عينيه في وجهي بقساوة:

- أيّ رغيف يا بطل؟ ألست عسكرياً؟ ألا تعرف؟

- أعرف. ماذا أعرف؟ من أجل دواء؟ دم؟ هل هنا مستشفى؟

- لارغيف ولااسبرين ولامن يحزنون. نحن أمام مكتب تطوّع. للالتحاق بالجبهة. هل أنت سكران؟

- لا. لا غير سكران ولكن:

هل تمزح، أم تهزأ مني، بشرفك هل يتعاركان من أجل التسابق إلى التطوع؟

- بماذا أحلف لك، هل من ضرورة؟ تقدَّم معي إلى أمام الشباك لترى القوائم والمزاحمة على التسجيل فيها أمام الملازم نفسه المكلّف بذلك وسله إن أحببت التأكد.

تدخّل شاب ثانٍ من الرتل:

- لسنا أمام فرن يا أخا العرب. تركنا ذلك للعجائز. إننا أمام مكتب تطوّع. أنا كل همي الآن أن يسلموني: الـ: آر - ب - جي لأخرط بها دبابة السنتوريون وأريهم كيف أحرق قلعتها الغالية الثمن - بصاروخ صغير لايزيد ثمنه عن دولار. عاد الشاب الأول للكلام:

- كل أمنيتي أن يسلموني سام /٧/ لأَبْعَطَ[١] به طائرة من طائراتهم الوقحة. اعترتني حالة دهشة وفرح لايوصفان. الطلاب يتسابقون إلى الجبهات؟ نحن بألف خير يا بَلَدْ، وطيري يا سيارتي طيري، ولتعجن عجلاتك الطريق عجناً،

وهيهات يابو الزُّلف - عيني يا صابيْاْ

خطّ آلون انعفس ببواط سوريّة

---

١ - بعط الشاة: مدّها على الأرض وذبحها. مادة بعط القاموس المحيط.

وخط بارليف انهرس ـ بيواط مصريّة

كانت كل دفعة حماس تنتقل، لاشعورياً، إلى مدوس البنزين في السيارة، فتجعلها ترقص وتتمايل بحمولتها الضخمة. كراقصة دُهرية[٢] معمَّرة جاءتها نشوة مفاجئة، ويصيح السائقون على الطريق:

ـ هيه، مالك، هل جُننت؟

ـ هل أنت سكران؟

ـ إضبط مقودك وإلا روَّحتنا.

وأجيب بأهداب مرخية ومسبلة بطراً فوق عينيّ:

ـ سكران؟ نعم والله سكران، إنما بخمرة الشباب، خمرة الشجاعة وردّ الاعتبار. خمرة التشفي، حتى المجازفة.

قولوها عني يا عمي ولايهمكم، أنا راضٍ بأي كلام منكم.

قال الرقيب مبتسماً: وصف أمتع من وصف حفلة زفاف يا رجل، اضربوا كفّ للسائق.

رنت الأكفّ. يعيش السائق، بل الكاميرا، بل التليفزيون. بل وكالة الأنباء.

ـ بل تعيشون أنتم يعيش الجيش العربي السوري، وجنوده الأبطال. كاسِرو رأس العدوّ، ومطيِّرو صوابه. وخالعوا قلوب طيّاريه رعباً.

ـ بل يعيش أبو حسين. يعيش الطلاب، ويعيش الدفاع الجوي البطل. يعيش يعيش...

---

٢ ـ دُهري: بضم الدال: معمرٍ. وبفتح الدال المنكر للخالق المعترف بالطبيعة فقط.

الطيَّار أحمد عطر الشّام

المكان: غرفة استجواب في الأرض المحتلة فيها ضابط تحقيق صيهوني ومساعدين.

الزمان: يوم من أيام حرب ٦ أكتوبر

* * *

الضابط الصهيوني جالس إلى مكتبه، عابس الوجه، أمامه هاتف. الهاتف يرنّ، الضابط يرفع السماعة متوتّراً:

الضابط: آلو:

ـ هنا الرئيس، حقق فوراً مع الطيار السوري الذي اضطر للهبوط في أرض إسرائيل بعد أن أصيبت طائرته بعد تأديته مهمة القصف المروّع، انتبه، فلديه معلومات هامة عن سلاح الطيران السوري. قواه، الشيفرة التي يتعامل بها، نواياه... أرسلوا لنا النتائج فور انتهاء التحقيق. انتهى.

الضابط يضع السماعة بعد أن يؤدي التحية: حاضر سيدي. يتنهّد. يشبك مابين يديه على الطاولة، يحدّق بالجلادَيْن المساعدَيْن له في التحقيق. يأخذ سيجارة ويضغط زر ولّاعة الغاز، فلا تشتعل، يصرخ:

ـ قدّاحة رديئة مع أنها تحمل ماركة /فانتوم/.

ماركة القداحة تظهر على أحد وجوهها.

الضابط متابعاً: يا لهذه الأيام اللعينة، يتقدم أحد المساعدين يشعل له

السيجارة من قداحة عادية تعمل على البنزين.

الضابط: هذا أضمن في كل الأحوال. ثم يخاطب المساعدَيْن: إليّ بالبطل الأسير، هازئاً!

المساعدان يحضران الطيار السوري الذي مازال بثيابه الجوية، نازفاً من كسرٍ في ساقه لم يداووه بعد، وقد عصبوا له عينيه وقيدوا يديه ورجليه.

الضابط: ما اسمك يا زعيم العصابات؟

الطيار: أنا طيار في جيش، ولست زعيم عصابة. واسمي: أحمد عطر الشام.

الضابط: عطر الشام؟ تقول ودوَّختنا، فكيف لو لم تكن عطراً، ماذا كان حلَّ بنا؟

المساعدان يقفان كل في زاوية بأمر الضابط، يلقِّمان كلٌّ سلاحه على مسمع من الأسير.

الضابط معابثاً: والآن قل لي. لماذا أنت تهوى الطيران؟ هوايتك خربت بيتك.

الطيار الأسير رافعاً رأسه: لأنني كنت أريد أن أرى أرض فلسطين، كلَّها. لأستطيع وصفها جيداً لأولادي، فلسطين العربية طبعاً.

الضابط: ألا تعرف بأنك أسير، ومعصوب العينين، ومقيَّد، وتحت رحمتنا؟

الأسير: كنت رأيتها، وقبل لحظات كنت أراها من فوق، فاشتقت إليها أكثر فهويت نحوها كما يهوي الولد على ثدي أمه بعد غياب.

الضابط: هذه أرض إسرائيل يا حبَّاب، أرض الميعاد، ارض ربّ إسرائيل وليست أرضك، أرضنا، أرضنا، ويضرب الطاولة بكلتا يديه. ثم

يحاول إشعال سيجارة.

ثم تمتد يده إلى المذياع /الراديو/ يقلب مؤشره فتنطلق أغنية عربية لسيد مكاوي: الأرض بتتكلم عربي. الأرض الأرض.

الضابط: يحرف المؤشر بعنف، فيسقط الراديو على الأرض، يرفعه أحد المساعدَيْن يعيده إلى وضعه من جديد.

الأسير ضاحكاً: إذا كانت أرضك. وتعتقد ذلك حقيقة فهل هناك خوف من صوت أغنية؟ أغنية يبعد عنك مصدرها مئات الكيلومترات وربما آلاف منها.

الضابط، لا، بل هذه طريقتي في التخلص من الأمور الكاذبة. والكذب كما تعلم كثير في الدنيا.

الأسير: هل تعامل كل الحقائق بنفس الطريقة؟

الضابط: إخرس يا وقح، كل الدنيا لإسرائيل. الأرض والمجد والعاقبة القوة، العظمة، ويعلو صراخه، وحتى أمريكا. المال والذهب لها. ولي أيضاً. أنا مثلاً راتبي في العام مليون دولار وأنت ماعندك شيء..!.

الأسير: وساقه ماتزال تنزف دماً حتى سال الدم على بلاط الغرفة ووصل أمام أقدام الضابط المحقق:

ـ أحتاج إلى كأس ماء، إنني أنزف، عطشت، ولكن تذكّر هذه الكلمة مني قبل أن... من الأفضل أن تقوي في المحارب إيمانه إن استطعت، بَدَلَ أن تقوي جيوبه أيّها المحقق.

الضابط: إذن لاماء الآن، ألا ترى دمك قد حاصرني؟ كيف يكون دمك بهذه الغزارة وتحتاج ماءً؟ إشرب من دمك إن شئت أن ترتوي. أخشى أن يلوثني دمك أيها الطير السوري. لقد بلل غرفتي. إشرب من

إيمانك ودعه ينقذك ويُشبعك.

الأسير: بل قل: أيها الطيّار السوري، صحّح فليس الأمر على كيفك.

الضابط: إيه ذكرتني، كنت طياراً، صح، صح. مانوع طائرتك المسكينة؟

الأسير: ميغ ٢١ المرنة.

الضابط: طائرة سخيفة.

الأسير: لاترهبكم؟

الضابط: أبداً وكم صاروخاً تحمل؟

الأسير: خمسة.

الضابط: سمعنا بميغ بأربعة صواريخ ولم نسمع بميغ بخمسة صواريخ من هذا الطراز. فهل عندكم تطوير فني عربي لحق بالطائرة؟ وماعندنا خبر؟

الأسير: أظن.

الضابط: أين يركب الصاروخ الخامس؟

الأسير: في الكبين.

الضابط: أنت قليل الذوق، تهزأ بالمحقق؟

الأسير: أنت قليل الخبرة.

الضابط: اخرس. وبعصبية ينهض من مقعده ويركل الأسير المقيّد، فيبدو الأسير كصخرة سقطت من جرف، لايتهيّب ولايهتز. الدم يتطاير أثناء الحركة إلى بزة الضابط المحقق، يعود الضابط يمسح بمنشفة ماعلق على بذته. يساعده في ذلك أحد المحققين.

يجلس من جديد إلى الطاولة، يتابع الأسئلة:

الضابط: اذكر بالتفصيل الأعداد الباقية لديكم من أنواع الطائرات المقاتلة والقاذفة ومن الطيارين ورتبهم وكفاءاتهم القتالية....

الأسير يرفع رأسه منصتاً: «صافرة إنذار تهزّ المكان، أصوات طيران في الجو. الضابط والمحققان يخليان المكان إلى ملجأ تحت أرض غرفة التحقيق» في حين يبقى الأسير وحيداً.

الأسير لنفسه منتشياً شامتاً: حياكم الله نسور الجوّ السوريين. هذه أصوات طائرات سوخوي ٢٠ وميغ ٢١ وميغ ٢٣، أين أنت يا حضرة المحقق. كيف تقول هذه الأرض لك وتتركها؟

بغريزية... نطق الطيار الأسير، وأضاف:

كم أتمنى أن أرى ذلك اليوم عندما يصبح كل الشعب العربي وغير العربي معكم وجهاً لوجه، فيكشف زيف ادّعاءاتكم وتهيؤاتكم التي ليس لها أساس من الصحة، لافي كتاب مقدس ولافي آثار على وجه الأرض.

إنكم، أيها الصهاينة، تنسجون الأسطورة وتحاولون أن تقنعوا العالم بها، أين ثقافتكم فوق الأرض، أين آثار حضارتكم، أين أهراماتكم! أين سدودكم أين أدواتكم، حروفكم، أين آدابكم، أين علومكم، أين توضّع كل ذلك على الأرض؟ أنتم قبيلة ككل القبائل البدويّة الرّحّل. لم تصنعوا حضارة ولاتاريخاً شامخاً ولاعِلماً ولا أدباً ولاموسيقا ولانحت ولارسم، أين أين؟ أخرِجوا ماعندكم وضعوه في مقابل ماعند الأمم؟ ليس عندكم ماتعرضون أبداً. أين معايير ارتباطكم بالمنطقة لتحسّوا بها وبإنسانها؟ ليس لكم أية معاناة مشتركة، هل قاومتم الرومان أم التتار؟ أيكون رفاقي أبطال هذه الغارة يا ترى، وأنا هنا كأبي فراس الحمداني في حصن خرشنة؟ تابعوا أيها الأشاوس. لاترَهبوهم. إنهم، خوّافون بما فيه الكفاية وغير واثقين مما يصنعون...

يحني الطيار رأسه على ساقه التي مازالت تنزف ويبطؤ كلامه، ثم ينحني رأسه أكثر فأكثر تحت موجة الألم المبرح للجرح الذي شاؤوا أن يتركوه نازفاً. يعود الضابط المحقق بعد إعلان انتهاء الغارة مع المساعدَيْن؛ الضابط المحقق: هه. أما زلت هنا، حسبتك انهزمت. هاقد أُفسحتُ لكَ الفرصة. لكن الفرار يحتاج إلى فطنة وشجاعة، أليس كذلك، ثم... يتنحنح:

أخبرك خبراً غير سارٍّ لك. هذه طائرات سلاح الجو الإسرائيلي تقوم باستعراض النصر عليكم، أعني على العرب جميعاً، وقد خرجنا لتحيتها:

الأسير عطر الشّام: إذا كنتم قد انتصرتم فما الذي تبحثون عنه في أسير؟

الضابط محتدّاً: يدير وجهه إلى آلة التسجيل التي تركها تعمل منذ البدء. ونسيها تعمل عند مغادرته المكان إلى الملجأ بعد صافرة الإنذار.

الضابط يمدّ يده إلى زر الإعادة.

الضابط يعيد الشريط منذ صوت /صافرة الإنذار/

الضابط يترك الشريط يعمل:

الشريط يكرر: صافرة إنذار ـ أصوات الطيران ـ صوت الأسير ـ هذه طائرات سو ٢٠ وميغ ٢١ صوت المسجلة، يتتابع ويسمع الضابط صوت عطر الشام ـ حديثه كاملاً. بينما يدير وجهه كله جهته، مبتهلاً وكأنه عثر على كنز في التحقيق:

الضابط مبتسماً: ها، كنت أعرف. وبمكر: ولقد تركت الشريط يشتغل وأعطيتك فرصة الإفضاء، وأنا خارج. مرحى لك.

لابدَّ أنك ضابط مهم. خبير. مهندس. قائد عمليات، حتى تعرف الطيران من أصواته على هذا العلو، وبهذا الاختلاط والضجيج: سو ٢٠ ميغ ٢١.

لاشك أنك تعرف أن الغارة كانت مقررة أيضاً، هذا شيء مهم عن عبقريتك وأهميتك يا صاحبي. أما معلوماتك الأخرى فقديمة، ولم تعد تنفع اليوم. لن يعود بإمكانك أن تخفي عنا شيئاً، الخيط من أوله أصبح بيدنا. إما أن تكمل. وبصدق وإما أن تنتهي حياتك. وإذا أكملت تعود إلى زوجتك وأطفالك، أليس حرام عليك أن تدعهم يكون عليك ويعيشون أيتاماً، أذلّاء بين قومهم؟ تعرف ولا شك معنى اليتم في بلادكم، الظروف لاتساعد. وأحدٌ لايعطف، واليتيم يُهان والزوجة كذلك، إذا كنت تحب زوجك وأطفالك اعترفْ، ونعيدك إليهم. آ ـ حبيبي، مارأيك؟

ثم إلى أحد الخدم: هات له كأساً من الشاي، اكرك عجم كما كان يشربه في استراحة الطيارين. فنحن نعرف عاداته.

عطر الشام مبتسماً: لِم كل هذه المحاضرة؟ أرح نفسك بكلمتين: أنا قائد عملياتي، وأنتم كما تقول، انتصرتهم. وحسمتم الأمر. فما فائدة خطة لأبرع عدوّ إذا انكشفت؟ وخاصة بعد النصر؟ الضابط يوعز للجلادَيْن بتعذيبه بإشارة متفق عليها، لكنه ينطق بكلمة: أكرموه إنه يستحق الإكرام. بطل. لكنه مازال ضيفاً خجلاً. الجلادان يبدآن بتعذيبه، السجائر تطفأ في عنقه، ووجنتيه، أسلاك كهربائية تمتد وتضرب جسمه بالجدار. عطر الشام يسقط مغشيّاً عليه.

الضابط: صبّوا عليه الماء. الماء بسرعة. وبكثرة.

ثم تمتد يده إلى مؤشر الراديو يحركة إلى إذاعة إسرائيل:

عطر الشام يستفيق من إغمائه قليلاً. بدون أن يبدو عليه ذلك. هنا إذاعة إسرائيل من أورشليم القدس: إليكم النبأ التالي:

«قام تشكيل من طائرات سلاح الجو السوري المعادي بقصف مصفاة حيفا قبل قليل، وقد تصدت له وسائط دفاعنا الجوي ومنعته من تحقيق

مهمته فألقى حمولته في البحر وفرّ هارباً.

الضابط يتمتم: شبعنا أنباءً من هذه الشاكلة، كل الطائرات السورية تلقي قنابلها في الماء، فمن أين جاء الحريق والدمار والقتلى والجرحى إذن؟

ثم يحرّك الضابط المؤشر إلى إذاعة مونت كارلو، المذيع يعلن:

- إليكم النبأ العاجل التالي:

- قامت تشكيلات من سلاح الجو السوري بضرب مصفاة حيفا وذكرت بعض الأنباء أن ذلك جاء كرد فعل على ضرب إسرائيل لحي أبي رمانة المأهول بالسكان والسفارات الأجنبية في مدينة دمشق العاصمة السورية.

وأفاد شهود عيان بأن الطائرات أصابت أهدافها بدقّة، وشوهدت النيران تندلع في كل أقسام المصفاة، عالية: حتى السماء. وقد هرع رجال المطافئ ولم يستطيعوا التدخّل حتى الآن بفعل توالي الانفجارات التي سمعت حتى الأراضي اللبنانية، وحتى عرض البحر الأبيض المتوسط.

وقد عادت تلك الطائرات وهي من طراز سو ٢٠ وميغ ٢١ إلى قواعدها سالمة. خرجت ضحكة تهكّم قصير من عطر الشام. الضابط يلتقطها بأذنيه «ويطنّش»[1] عنها، يحدق بالمساعدين باستغراب مستنطقاً إياهما وهو يصرخ بعصبيّة: ولكن لِمَ يكذبون علينا؟ طائراتهم لاتحمل قنابلها إلى الماء!!! ولكن إلى أهداف ثمينة في إسرائيل!!! ثم ينظر إلى عطر الشام وقد نفد صبره: يا عطر الشام يا هذا راح، احم. قد تسبب لي بسكوتك، سكتة دماغية!!!. أم أنك... ربّما، تنوي ذلك...!؟ أجب.

---

١ - بالعامية السورية أوردناها لكثرة استخدامها وتعني أنه أغفلها مع سماعهِ إياها.

القنبلة النظيفة

قال الجندي وهيب. من سلاح الدروع السوري: إن آخر كلمة سمعتها من الأسير الإسرائيلي الجريح. الذي مات قبل أن تتمكن السيارة من الوصول به إلى نقطة الإسعاف. بسبب الألغام التي كان قد بثها الجيش الإسرائيلي في الأرض السورية قبل انسحابه إلى خلف خط آلون هي كلمة: القنبلة النظيفة.

قلنا له: نريد القصة من أولها... مامعنى قنبلة نظيفة. وهل هناك قنبلة نظيفة في الدنيا؟

قال: تكرم عيونكم. صبّوا لي كأس شاي أولاً، كبيرة، وساخنة.

قلنا: حاضر.

تابع وهيب بعد رشفتين. وتنهيدة قصيرة.

.... كانت الاشتباكات. بيننا وبينهم قد تتابعت ليلاً، بعد اقتحام قواتنا المدرعة ومشاتنا الميكانكية. لخط آلون الذي كانوا حفروه لإعاقة آلياتنا، ودعموه بألغام الآليات والأفراد وبخط مكهرب أيضاً.

....

دارت مشاتنا الميكانيكية حول تل «أبو الندى» المطل على القنيطرة، عروس الجولان، والتي كان الإسرائيليون قد احتلوها منذ حرب ١٩٦٧، ثم دمروها بالبلدوزرات وخربوها، في عملية التفاف على الموقع الإسرائيلي

المحصَّن بغية تصفية ومتابعة التقدم باتجاه محور بحيرة الحولة.

كنت قد جُرِحتُ، حيث كانت مهمتي هي نزع الألغام من محاور تقدم الدبابات، كان الوقت بُعَيْدَ المساء وكما يقال: من مأمنِهِ يُؤتى الحَذِر، وللليل ظروفه الخاصّة به. كان رفاقي مضطرون لمتابعة التقدم. لتنفيذ مهمة معطاة. في الوقت نفسه، حاول تشكيل إسرائيلي مدرع أن يوجّه بالحركة والنار رأس حربة إلى قواتنا المتقدّمة. في محاولة منه لتخفيف وطأة الهجوم أو لإيقافه.

في البداية، لم أكن أعتقد بأهمية الجرح، وعندما صرخت: آخ. سألني رفاقي ما الخبر؟ لاشك أنه الانفجار الأخير. أهو لغمٌ؟

ـ قلت بسيطة، كأنه جرح شوكة، سأتدبر الأمر، سأفك أربطة الطوارئ الطبية في جعبتي وأرش المواد المطهرة وأضع المرهم المضادّ للالتهاب، وأضع الضمادة. وألحق بكم، دقائق وأكون جاهزاً.

لم أكن أعلم. والجرح ساخن، أنَّ أصابع يدي اليمنى: الإبهام والسبابة والوسطى، قد تهشّمت وعندما أحسست بذلك الحدث الرهيب تملكتني سكتة لسانية. فلم أصرخ. أكيد أصابتني غصّة. أذكرها جيداً. لكن كان لابدَّ لي من التحمّل، فالوقت ليل. والقدر هكذا. دائماً مفاجئ، والحرب ليست نزهة ليلية في ضوء القمر بين الأشجار، لا أدعي أنني عنترة العبسي يا شباب. لكن والله إنني تماسكت، وقلت في نفسي:

شيء وحصل، تابع التضميد كما وعدتَ رفاقَك، والأصابع؟ بسيطة، أعني قياساً بقدرتي عن إسعاف نفسي. وهذا أمرٌ لايستطيعه كل إنسان.

لكن ماذا تفعل إذا كان القول غير الفعل؟ لقد أصابني نوع من الإغماء. خفيف لكنه موجود، كانت، الشظية التي التهمَتْ الأصابع شظية لغم مضادّ للآليات، أعرف، وهذا اللغم يطيِّر دبابة، فهو متسامحٌ إذا

اكتفى بأصابعي!!!

وعندما جاءني الصوت من الأمام من رفاقي: وهيب، أين أنت أجبت كالشجعان:

ـ ألصق ضمادة وأعصبها، دقائق وأكون معكم، الطريق واضحة بالنسبة لي. تابعوا لن أتوه.

وعندما خاطبني «عبد السلام» رفيقي: هل نُعلم الجماعة الطبية؟ أجبت بحسم: ـ لالا، فقط إذا تأخرت كثيراً. أو مافيه داعي، مافيه داعي، كنت أقدّر أن تقدم الجماعة الطبية إلى هذه النقطة المحفوفة بالمخاطر، وليلاً، سيعرض كل الجماعة للموت، احتمال، وأكون أنا السبب، بما أنني معافى، فلأتركْ الجماعة الطبية لمهمة أصعب.

انبطحتُ على جانبي الأيسر، رفعت اليد اليمنى إلى الأعلى لأقلّل من النزف، لقد جرى الذبح بسرعة خاطفة، ولا أمهر جزار يمكنه أن يصنع أفدح من ذلك، عاتبت نفسي على المقارنة، إلّا أنه قدري. وخواطر النفس تتدفّق، وليس بيدك منعها.

بسرعة فككت الصرة المطهرة باليد اليسرى هذه المرة، بمساعدة أسناني انتزعت البودرة الخاصة، رششتها على الجرح، ثم كانت المهمة الأعسر، فكيف سأركّب الضمادة؟

تذكرت الدروس الصحية، لففت الضمادة أولاً على الرسغ. لكنني أحتاج إلى مقصّ لأشطرها شطرين، كيف سأمسك المقص باليسرى؟ هذا بدا مستحيلاً.

الشطران يتجه كل واحد إلى إصبعين وتنتهي المهمة، ولكن الإمساك بالمقص مستحيل.

- ها، حضرتْ الفكرة، لفافتان، الأولى تتجه إلى أصبعين، والثانية تدور حول المعصم مثل أو فوق أختها. ثم تتجه لضم الاصبعين الأخريين وهكذا ثبّتُ الضمادتين إلى المعصم، ضممت ماتبقى من الأصابع. إلّا أن النزف مازال مستمراً، مع أن كل قبضة يدي أصبحت ضمن الضمادة. تناولت الحبوب الخاصة بمنع حدوث التهابات خطيرة. لكن الدم بقي يسيل.

لففت ضمادتين أخريين أيضاً، فوق الأوليَيْنْ. وأحكمت الشدّ، حيث كانت الدوخة قد خفت. لكن الألم ظهر من جديد. طاغياً. هذه المرّة، فربما أججّه شعوري، ووعيي لحالتي وحالة أعضائي، فقد أصبحت بدون أصابع، وهي المماسك الوحيدة ذات الاستعمال المستمر في حياة الكائن البشري، كيف سأسلّم على الناس مستقبلاً؟ هل هناك أصابع اصطناعية تُركّب؟... كل هذه الخواطر وسواها داهمتني، وأكثرها إيلاماً وحدّة، أقولها لكم: لم أكن قد تزوجت بعد. هل ستقبل بي فتاة وأنا مقطوع الأصابع؟

الضمادات لم تفِ بالغرض بعد، لففت زوجاً ثالثاً منها. لم أكن أعلم أن عندي كل هذا الدم الغزير. أصبحت اليد اليمنى تنتهي بكتلة عظيمة، أو قلّة ثقيلة جداً، مضمخة بالدم، وطرية، واستطعت أن أتحسس ارتواء التراب تحت مرفقي بالدّم حيث أصبح ينزلق إذا ماحاولت وضع الذراع على الأرض في حالة انتصاب لأقلل من اندفاع الدم وأساعده في منطقة النزف على تكوين الخثرات المانعة للنزف.

أيتها الأصابع بماذا قصَّرتِ حتى نلتِ هذا العقاب؟ أين أصبح رفاقي؟ هل عادوا لإمتطاء العربات؟ كيف سألحق بهم والليل مليء بالمفاجآت؟ ألم يك من الأفضل أن أستمر في الزحف معهم، كنت أتصوّر أن الأمر

بسيط، لكنه جرح لعين، فقدٌ لأعضاء، ياللهول». عاتبت نفسي. ثم بصوت مجروح: أيها الإسرائيليون المجرمون. هذا لغمكم أخذ أصابعي. ربّما كنت سأموت هنا، لكن لي عمر، والذي له عمر لاتقتله شدَّة، هكذا جاء في أمثالنا العظيمة، اللعنة على العدوان، كيف لي أن أنتقم منكم، وهل سأقدر»؟ أشعر أن روحي تنعصر عصراً بين عظامي.

عندما حاولت النهوض لم أستطع. كانت قدمي اليمنى تغوص داخل الحذاء العسكري الواسع بسائل ساخن.

ـ عجيب ـ هل سال دم يدي إلى حذائي ؟ أم انسكبت مطرة الماء دون أن أحسّ؟

ـ لا مستحيل.

ـ كيف إذن ؟

ـ حاولت النهوض للمرة الثانية، حيث تأكدت من وجود إصابة في قدمي، ولكنني قلت: دع القدم في حذائها، فليس في مكنتي الآن فك الأربطة، وربما يساعد ضغط الحذاء على هذه القدم على عدم جريان الدّم. لكنني جرَّبت أن أقف على قدمي هذه فخذلتني إذن لا بد من وجود كسر فيها، ربّما خفيف. ولكنّه معيق. إذن أبقي ولي قدم يسرى ويد يسرى قلت في نفسي وتمتمت:

ـ أصبحت نصف رجل.

ـ والحرب تحتاج إلى أكثر من رجُل في الرَّجل الواحد

وعدت فغمغمت «ـ يفرجها ربك يا رجل».

فقدت كمية كبيرة من الدم في هذا الليل الملغوم، بحيث لم أستطع متابعة السير. وعندما نهضت للمرة الثالثة شعرت بدوار شديد، اتهمت

نفسي بالخوف، لكن قلبي بدا يَجِفُ وَجِيفاً مثل كهفٍ فارغ.

جررت نفسي إلى الأمام مع كامل تجهيزاتي الميدانية مع سيخ الشّبر. لكن الحركة سببت لي عودة النزف السخيّ، توقفت. بقي لدي ضمادتان مع الشّال العسكري. هل استخدمهما؟

أجبت نفسي: لا. فالليل طويل. وربما. لا قدَّر الله. فقدت أعضاءً أخرى. كل احتمال وارد. اليد الثانية مثلاً؛ أعوذ بالله من هذا التصوّر، لا. لن أفقد شيئاً ـ لن... ضغطت على أسناني وشعرت بحرارة أنفاسي وسرعة خروج الهواء من أنفي.

تمرّ الآن، من عن شمالي ثلاث دبابات إسرائيلية، أحصيتها على ضوء قنبلة مضيئة. بسرعة غير عادية. هي أقرب، لو حاولت تفسيرها عسكرياً، إلى فكّ الحصار عن نقطة محاصرة بالمشاة أو... محاولة للاستجابة لاستغاثة. أو الإيهام بالتقدم. أو للتخلص، كل هذا وارد.

إنني لن أتمكن من استخدام الـ: آر. ب ـ جي، المضاد للدروع. فهو بحاجة، كسلاح، إلى التسديد باليدين، واليد التي ستحرك الزناد، وتضغط عليه، هي اليمنى و.... أصابعها يا حسرة!! لقد عرف لغمهم ماذا يأخذ معه....

السّلاح ممتد إلى جواري، ملقّم، جاهز. ولا أحرّكه؟ أحسست إذ ذاك أنني أخون السّلاح، على أقل تقدير.

لكن اليسرى غير قادرة بمفردها على القتال الناجع، وإذا مارميت ولم أصب الهدف، دللتهم على نفسي. وقلت لهم: ها أنذا. التقطوني، تحدث أمور لاتعرف كيف تحدث في الساعات العصبية يا شباب. مخ آخر يشتغل غير المخ المستعمل في حالة الراحة، مخ أعلى كفاءة. يدي اليسرى تمتد. بآلية عجيبة إلى الـ R.B.G. تضعه على الكتف، العنق تلتوي عليه

مثل التواء أم علي طفلها المهدّد، اليد اليمنى، بدمائها الثقيلة، تثبت الجهاز، أصبحت جاهزاً في وضعية الرامي المعهودة تدريبياً. اليد اليسرى تتعامل بكفاءة نادرة مع باقي التجهيزات الضوئية، العين تبصر جيداً الدبابة التي تطحن الأرض طحناً.

الصاروخ مركب على مقدمة الجهاز، وهذا من حسن الحظ، كيف تم التصويب؟ لاتسألوني.

اسألوني فقط عن المنظر: ها هي زعانف الصاروخ تهتزّ، أحسستُ بها، ثم أحسست بالوميض الخاطف. ثم النار تندلع مثل مشحَرة مشتعلة في الدبابة الإسرائيلية الأولى.

الخزانات بدأت بالتفجُّر. اختفت الدبابتان الأخريان في الدخان والغبار. لكن صوتهمها لم يختف عن أذني. إنَّما بدأ يخف ضجيج المحركات ثم يتخامد. هل وقفتا. أهم هربتا راجعتين؟ أم تُركتا وفرّ منهمها العكسر؟ لاأدري. أحسست بدماء جديدة نقلت إليَّ لامن المستشفى، لكن من خزان الدَّبابة المحترقة، وبواسطة أنبوب لابواسطة إبرة السيروم الضيقة.

تهيأت من جديد للسير. وقفت وأنصتُّ. لكن الضمادة قد تمزَّقت. كان رأسها قد علق بأحد نتوءات الجهاز أثناء التسديد. وتمزَّق. وسقطت دماءٌ متخثّرة، وبدأت الجروح تنزف دماً من جديد.

بدأ قلبي ينوس نوساتٍ طويلة وأخرى قصيرة، هل هي....؟ لا لا، هذا نزف لايسبب ذلك وقلبي مازال يملأ صدري ضجيجاً.

ـ هل هو تلوّث من نوع ما؟

ـ لايوجد دليل قاطع يا رجل، لاتستسلم للوساوس. أقنعت نفسي.

رقدت على الجانب الأيمن لجسمي. ثم عدت إلى الأيسر. هاقد هدأت المنطقة قليلاً. استطعت أن ألتقط حركة بالقرب مني. هل هو أحد أفراد طاقم الدُّبابة المحترقة، أو الطاقم كله، أو جلّه، كيف لم يحترقوا؟ أو ربّما غيره؟

ـ ءَأنا وحدي أُصاب؟

ـ لعل بعضهم قد نجا بقفزة انتحارية.

ـ لكن شهدت الدبابة تندلع كالبركان، على الأقل. شظايا ذخيرتها كفيلة بقتل من يغادرونها.

ـ لاعجب. إن المصادفات. وفي الميدان، تكاد لايصدّقها عقل من غرائبها، كنت قد قرأت عن حرب فيتنام الكثير، وكنت أطعن في الكثير مما أقرأ واعتبره من خيالات الكتاب، لامن وقائع الحرب، أما الآن فقد استغنيت بالمشاهدة عن قوة الإقناع والدعاية. بالطبع إن الاستكانة أو الاختباء من الخطر موجودان، لكن الانتقام أيضاً موجود، وردُّ الاعتبار موجود كذلك في الذهن.

ارتفع صوت الحركة من حولي، خفضت رأسي، حركة حذاء يصطدم بالحصى، وسلاح فردي ينجرّ في التراب وعلى الحجارة حيناً، لايصعب على الجندي تمييز الحركات كما تعرفون، بالمقارنة مع مخزون ذاكرته منها، وعلى الأخصّ في الليل، حيث تعمل الأذنان نيابة عن باقي الحواسّ.

ازدادت الحركة قرباً، عدت فتوسَّدتُ كتف الحفرة متهيئاً بسلاحي الفردي، بمساعدة الجبّارة، اليد اليسرى، وصل إلى أذني صوت أنين رجل، وعلى ضوء انفجارات بعيدة استطعت أن أميّز جندياً يزحف باتجاهي.

حدثتني نفسي عن الطاقم وهو يحاول. إدراك مصدر النار التي أُطلقت على دبابته. أو... لا. لا.

ـ الطاقم الأول انتهى.

ـ هذا من طاقم الدبابة الثانية التي تربصت أو هربت. أكيد. قلت. قررت المقاومة بفتح النار رشاً على الجنود جميعاً عند المدى الذي أستطيع تبينهم فيه جميعاً.

لم آتِ بأية حركة، ولا نأمة، أُعطيت الصَّبرَ والقوّةَ، هذه طلقاتك الأخيرة إذن يا عين أمّك، خاطبت نفسي راثياً لحالي. كانت المنطقة التي سقطت فيها تضمّ حفرة ومعبر وللحفرة ساتر ترابي كان يستخدمه العدو كميناً أو مربضاً لسلاحٍ ما، وقد استخدمته لأجِدَ فيه بعض الأمان من الشظايا المتطايرة والهدوء اللازم لتضميد جراحي.

من جديد لمحت جسماً يتقدم باتجاه الحفرة أدركت أنه مصدر الأنين. أتريّث قليلاً أراقبه. كان بطيئاً في تقدمه، لم أعد أسمع في المنطقة أية تحركات أخرى تدل على جنود مقتربين أو مبتعدين ـ لكن لا أدري عن هذا المتحرك شيئاً؛ أصديق هو أم عدوّ، ملت إلى اعتباره عدوّاً، وسوء الظن من خير الفطن، وأنه يقلد الجريح الذي يئن، موهماً بالضعف وموحياً بالإشفاق، ثم تأتي غفلتي وعواطفي تبعاً لذلك ثم يوقع بي بشراسة ذئب جائع.

كنت قد شهدت مثل هذا السلوك من خلال دورية على خطوط التماس سابقاً، أذكر أني رأيت كلباً عادّياً يهرول باتجاه موقعنا في أثناء دورية ليلية، وأني أطلقت النار عليه من باب التسلية أو حتى الشك من أن يكونوا قد علقوا برقبته لغماً أو قنبلة موقوتة ثم دفعوه باتجاهنا.

وفي الصباح بينما كان أحد جنودنا يعبر من المكان نظر فرأى جثة

كلب كبير فكّر أن يسلخ جلده ليبيعه. نادى أحد رفاقه ليساعده على جره إلى حفرة مناسبة من أجل هذا العمل، وكم كانت دهشتهما عظيمة عندما انشقَّ جلد الكلب عن جندي في الداخل، على ثيابه ثلاثة حروف عبريَّة وكان الرصاص قد اخترق صدره. إنَّه التمويه إذن، وربَّما كان هذا الكلب سيربط جهاز تنصُّت لاسلكي على أحد مواقعنا.

الليل والنزيف وهذا الذي يزحف أمامي متوجعاً مايزال، غوامض لايسعني التنبؤ بنهايتها. سأسحب من حزامي قنبلة يدوية. أطوِّح بها بيسراي العظيمة باتجاهه وليكن مايكون.

لكن، لا، التريّث مطلوب، لماذا لاأناديه أولاً؟ وباللغة العربية؟ لكن أليس لهذا السلوك خطورة من نوع آخر؟ أدلّ على نفسي بنفسي وذلك أسوأ تفكير يكون.

سأترك هذا المتقدّم كائناً من يكون، يتقدَّم نحوي ومن تثاقل حركاته، يبدو أنه في وضع لايخيف.

افترض الآن أنه معادٍ. وجريح، يمكنني إسعافه. معادٍ. وأسعفه؟ يالي من مقترفٍ الإثم، وارتفعت حرارتي وسخن رأسي، هو، لو يستطيع قتلي لما تأخّر ثانية واحدة. يالهذا التفكير السخيف، اعذروني، للجرحى عواطف تختلف قليلاً عن عواطف غير الجرحى.

تابع الرجل تقدمه زحفاً. ارتفعت حدَّة الأنين الموجع الذي يندُّ عنه، أصوات الأنين واحدة لدى كل البشر. لكن الإسرائيليين يدَّعون أن جنودهم لايتوجَّعون ولايئنون، وإذاً قد لايتألمون بناء على تلك المقدمات، وإذا كانوا لايتألمون فكيف سيثبتون أنهم يشعرون مثلنا ومثل بقيَّة البشر؟

انقلب الأنين إلى عويل مسموع ثم استغاثة، الآن أدركت أنه جندي

إسرائيلي، صرخت به:

- قف يا كلب، يا ابن الكلب، أتلبس فروة كلب أم أنك كلب حقيقي؟ لكنه استغاث بلهجة عربية ركيكة فيها ألم وذلّ:

- داخيلك:

- تقدم لأراك جيداً، «كاديما» أَتميتونَ الناس ثم تتماوتون؟ تبّاً لكم.

- داخيلك.

كمنت خلف السّاتر الترابي جيداً، اتخذت كل مايتخذه الجندي المتربّص من حذر للانقضاض إذا لزم الأمر وبكامل جسمي، وليكن مايكون، فقد أحببت أن ألقي القبض على هذا الكائن حيّاً برغم كل مابي، هل هذا جنون؟ لاأدري. لكن هذه الرغبة كانت دفينة عندي، رغبة أن أرى جندياً معادياً حيّاً يمكنني أن أتحاور معه.

نعم أتحاور بالكلام لأتبيَّن أية أكاذيب يحمل في دماغه، وأية خزعبلات يعتمد عليها في حياته. وهل من الممكن.... لاأريد قولتها. لأنني الآن ذكرت التاريخ الحديث للهصونية وفظائعها التي حدثت دون أي سبب أو مسوغ في منطقة فلسطين وفي بلادنا هنا أيضاً.

تابع الجندي زحفه وأنا أرقبه من أعلى، بطيئاً يتقدَّم، تستطيعون تمييز الحركات الصادرة عن مصاب عن التي تصدر عن ممثلٍ بكل بساطة، الممثل لاينجح بعرض الألم. وإن نجح بعرض حركة المتألِّم، شيء مافي الألم، شيء إنساني يصعب تقليده. وهو هو نفسه لدى كل كائن حي على البسيطة. كانت الدقائق طويلة جداً. عشرة أمتار، أقلّ أقل، بقيت تفصل بيني وبينه، دقائق أخرى وكان على أربعة أمتار مني فحسب.

- أفصح عن هويتك وإلّا رميتك بالرصاص. وأشهرت البندقية باليسرى

وأخفيت اليمنى لئلا يطمع فيَّ. وهو غالباً في هذا الموقف لن يميِّز اليمنى من اليسرى.

بصوت أجشّ فيه خيبة أمل كبيرة أجاب:

ـ جندي، جندي يهود... جريح، جريح يموت.

أجبت متصنّعاً وجود جماعة من حولي:

ـ طيب، لاأحد يقترب منه يا شباب. اتركوه لي. تقدّم نحو الطرف الشرقي للحفرة إذا كنت تريد السلامة.

تقدم الجندي زاحفاً بسرعة أفعى، وكأنه كان ينتظر دخول هذه الحفر مثل مستشفى، وعلى شفة الحفرة همد جسمه والتوت عنقه فوقها، وتراخت أطرافه، ظننت أنه أنهى مسيرته في الحياة عند هذه الحفرة، وسمحت لنفسي بالاقتراب منه، انحنيت فوقه:

ـ مابك؟

ـ لم يجيب.

وعلى ضوء البيل الصغير الذي في خصري استطعت أن أفحص كامل تجهيزاته، وأن أتبيَّن كامل سترته ولوحته المعدنية في معصمه وهي تحمل اسمه بالعبرية ورقمه العسكري.

ـ هاه... أنت إذن، أنت أخيراً، سليل شعب الله المختار. كما تدَّعون، والذين اختاركم لقتل الشعوب واستغلال الإنسان الآخر، لكنك جريح، ميت أو شبهه، يالقدري السيء معك، لاأستطيع أن أحاورك كما كنت أتمنى، أو أن أعاركك بالأيدي، رجل لرجل، لأشفي غليلي. لأن من زوَّدكم بالسّلاح المتفوّق ينطبق عليه ذلك القول الذي قاله أحد علماء

الحرب العالمية الثانيةك لبئس السلاح الذي يقتل نبيلاً بسهولة دون ملاقاة تقليديَّة.

ضغطت على شفتي السفلى حتى أدميتها:

آه، أيها الحيوان، لعلك كنت من جنود هذا الموقع، ولعلك أنت من ثبّت اللغم هنا قبل انسحابه، بل انقلاعه عنّا، وها أنت كالكلب الذليل تعود.

دقائق، وبعد أن رششت الماء عليه، أفاق من غيبوبته، ذكر أُمّه وأباه، على ماقدرت، ثم ذكر: راحيل أو راشيل، ثم ردَّد مقاطع من صلاة أو شعر أو دعاءٍ وهو يلهث. كان صوته يعلو ويهبط بينما دماء متجلِّطة حول عنقه ورقبته وأعلى صدره وعلى كل ثيابه وأمتعته وحزامه. بينما كان قد تخلص من سلاحه الفردي وجعبة الذخيرة.

عندما وجدني فوق رأسه علت وجهه بهتة، أدرت وجهي عنه قليلاً وأنا أنفخ الغضب من منخريَّ مثل حصان فاته الماء الغائر في بئر وكان يطلبه طلباً شديداً. تنحنحت باشمئزاز.

ناداني بالعربية مسترحماً.

ولم يكن في طوعي أن أردّ عليه.

لم يبدُ عليه أنّه فقد عضواً، ظاهراً. ونحن الآن جريحان. لكن الفرق بيني وبينه واضح جداً. فقد أشعرني أنني السيد هنا، وأنه الأسير الذي في غير دياره، مع أنّه لمح جرحي البليغ ويدي المتهدلة، أقول لكم؟ لاتفسير لذلك سوى أنه يشعر بعقدة الذنب تجاهي، هذه العقدة التي لايمكن إخفاؤها في الأوقات العصيبة التي يفقد فيها المرء كل مبادرة أو حيلة في الإخفاء أو التخفي أو الهروب.

عاد يتمتم بالعربية، والعربية يعرفها جل اليهود في فلسطين. فسكان فلسطين عرب، وهم جلّ السكان ومازالوا يديرون أكثر الأعمال العادية للإسرائيليين في المعامل والمخابز والحقول والشوارع والأبنية. نادى مرّة ثانية:

ـ من فضلك.

ـ ماذا؟

ـ شظايا في رقبتي ذبحتني وفي كتفي وبطني وساقيّ. أووو

ـ ليس عندي بقية شظايا أضيفها لك. أو ما تعلم أن لغمك أكل كفي؟ انظر يا مجرم.

ـ ضمادة يا سيدي. جرحي ينفتح كالنهر في بطني. أكاد أموت. اسقني ماءً.

ـ أنا من سكان منطقة طبريا، بيتي مازال على شفة البحيرة. ولم أشرب منذ فعلكم النبيل في طرد السكان المدنيين من هناك. مارأيك؟

ـ ضمادة. أرجوك واحدة من أجل... را... شيل.

ـ خذ هذه ضمادة. لعنك الله، لفها على بطن الكلب، لابأس من إطالة فترة عذابك. ستقص عليّ قصّة طبريا، فأنا عائد إليها بعد غربة طالت. بإذن الله.

ـ هل تضمن لي. هل سأعيش؟

ـ تهيأ، سأسوقك معي باتجاه رفاقي.

شهق واستدار نحوي.

ـ وأين رفاقك؟

ـ تقدموا باتجاه محور الحولة ـ طبريا، بينما تخلفت عنهم بسبب لغمك اللطيف. هذا الذي زرعتموه عندما انقلعتم إلى غير رجعة من هذا المعبر.

ـ أقسم لك أنني لن أعود لأزرع لغماً في كل ماتبقى من حياتي.

ـ أنتم كلكم لغم في حياتنا، مابقيتم على هذه الشوفينية المقيتة. إن العنصرية ليست سوى قومية حانقة فما قولك؟

ـ اغفر لي حبيبي.

ـ حبيبك؟ يحبك حبّ وغضب الربّ إن شاء الله. أنت الآن أسير.

ـ فهمت. لكنني لاأستطيع السير.

ـ ستزحف كالأفعى.

بدأ رأس الحربة بالتراجع مخلفاً وراءه أكثر من دبابة باتون وسنتوريون محترقة، تتوهج كالجمر من بعيد. غير أنّ الجندي لم يعد يقوى على الحركة. قلت في نفسي:

لابدّ من المحافظة على حياته كأسير حرب، أنا وجدته حيّاً. يجب أن يبقى حيّاً، وهذا من شرف الحروب، وشرف الإنسانية قبل أن تكون حروب، القيادة أولى به وبتدبير أموره. وأعطيته مطرة الماء من حزامي. بدأت أسمع همهمة صادرة عن جماعة مقتربة.

بدأت هضبة الجولان تهدأ قليلاً. الساعة الآن هي الثانية والنصف من صباح ٩ تشرين الأول ١٩٧٣. الهمهمة ازدادت وضوحاً. ندّت صرخة ألم حادة عن الجندي قادت الجماعة إلينا، فتلقيت صرخةً.

ـ قف، من هناك.

ـ أنا، أنا... وهيب: الساعة... ليلاً تهشّمت كفي هنا، ومعي جندي إسرائيلي جريح.،

تقدمت الدورية السورية مني، تعارفنا بكلمة السرّ. وكانت الدوريّة تسوق عدداً من أسرى بني إسرائيل وقد شبكوا ايديهم فوق رؤوسهم. فكان لابد أن يضاف إليهم هذا الجندي الذي اعترض على سحبه من الحفرة بقوله البطيء:

ـ لانفع مني، إن لم تحضروا لي الدّم فوراً. نزفت كل... دمي.

ـ ستعالج في النقطة الطبية القريبة. وسنعطيك كل ماتحتاج. أنت غال وطلب رخيصاً، أهنالك أشرف من بني صهيون يا رجل عبر التاريخ! أهناك أغلى من صهيوني عندنا؟ متهكماً بمرارة ظاهرة نطقت، مع تصميمي الداخلي على إسعافه بل إحيائه ما أمكن. ضحك كل أفراد الدورية. وماهي غير لحظات حتى طلب قائد الدورية السيارة المناسبة. حضرت السيارة، وقادنا إليها قائد الدورية السورية الشهم، وأصعدنا إليها بكل لطافة ورحمة. اتجه بنا السائق إلى نقطة طبية. تقع بَعْدَ القنيطرة.

في الطريق قال لي أحد أفراد الدوريّة:

ـ الحمد لله على سلامتك. هل عضّك هذا الوغد، وماذا جمعك به؟

ـ جمعتني به المصادفة. الليل غطاء للجميع كما تعلم، لاأعرف من أين أتى. لكنه جاء إلى الحفرة التي كنت أنا فيها أعالج جرحي من لغم كان مزروعاً في المعبر.

كان الجندي يهذي وهو يذكر صديقته. ثم يقول بكلام متقطع، أمريكا ـ سأسافر إلى أمريكا. ميشّامّ أمريكا. أي: من ثمّ...

ـ كلهم يفكرون بالرحيل ساعة الخطر. وقد سمعنا هذا الكلام من عدد كبير من أسراهم. قال أحد الجنود المرافقين:

ـ كيف يفكّر هؤلاء؟ أجبت، وتابعت:

يحاربون، ويموت غيرهم، أما الموت فلا يتشجع ويتقدَّم نحوهم؟ أي بشرٍ هؤلاء؟

ـ شيفرة لايحلّلها غير الصهيوني، أجاب المرافق.

نظرت إلى كل الأسرى الإسرائيليين. ومع أن يدي كان قد دبَّ فيها الورم واعترتني حرارة مرتفعة، فإني سألت:

ـ ترحلون وتحرموننا ألغامكم؟ ورفعت يدي المدمَّاة في وجوههم؟ قال أحدهم متطلفاً:

ـ لم نكن نعرف، أو هم قالوا لنا أنكم لاتغضبون، وفي النهاية أنتم رحماء وقلوبكم طيبة.

ـ أما رحماء فنعم، أمّا لانغضب فكيف؟ هل نحن حمقى، بلداء، أحياء دون مرتبة البشر حتى لانغضب لأفعال مؤذية أغضبت الله والإنسان والحجر والشجر؟

ـ بل إنكم تغضبون، قالها وهو يسعل، وأصبحنا نخشى غضبكم.

ندت عن الجريح لغة فيها مايشبه الاعتراف:

ـ لم نكن نشعر بأنكم تغضبون، وعندكم كل هذه الأراضي والصحارى. فيما مضى، كنا نشك في أنكم تغضبون وتحقدون. لاداعي لذلك وأنتم في سَعة.

ـ حقدنا شرعي، وغضبنا صحي، وليس حقد مَرَضي كحقد الآخرين، إنه حقد المنهوب على سارقه، هل تسمح لي بأملاكك مثلاً؟ أنا ماعندي ثروة، أتسمح لي بفك حزامك وأخذ نقودك وأنت تنظر إليَّ نظرة المبارِك؟

إن الذي لايعرف الحقيقة غبي، أما الذي يعرفها وينكرها فهو مجرم. فمن أيِّهم أنت؟

ـ ولكنكم تحاصروننا، نحن في حصار... وكان صوته يتقطّع ثم يتخامد.

ـ هذا شعوركم. ولعلّه صحيح، أنتم دائماً تشعرون بالحاجة إلى شنّ هجوم لأن عندكم شعور مستقر بأنكم في موضع ليس لكم في الأساس. وحصارنا في كل الأحوال، ليس قنبلة ذرية كالتي تحضرونها وتجهزونها أنتم لإخلاء الدار من صاحبها، والحقل من فلاحه، والراعي من سفوحه. سعل ثم نفث دماً، ثم نطق آخر عبارة في حياته، بل ألقى آخر جوهرة بين يدي أبناء شعبه الذين في السيارة:

ـ إن غضبكم.. هو... القنبلة الذريَّة... النظيفة، التي ستودي... ببني شعبنا، إن بقي ذاك فيكم.

تمايلت رؤوس الأسرى، استنكاراً لهذا الاعتراف، وقال قائد الدوريَّة:

ـ هذا ليس جندياً عادياً، إنه متنبئ أو فيلسوف حقيقي. وحكيم. قلت مغتاظاً، محركاً رأسي يميناً وشمالاً:

ـ كلّهم يتنبأون، كالحكماء، يا سيدي، ولكن قبيل الرحيل. وبعد فوات الأوان، فما الفائدة؟!!...

وسام لعاطف

من يَقُلْ لكَ: إنّ الطيران يكسر ظهر العسكري، وعليه الاعتماد في كسر صمود الجبهات فقل له، وعلى مسؤوليتي: أنت غلطان. ليس لأن تلك مقولة الأعداء التي حاولوا تسويقها إلينا، بل لأن الواقع كذّبها، وقديماً قالوا: إسأل مجرِّباً ولاتسأل حكيماً؛ ذلك أن صمود كل موقف، وتصليبه، إنما هو، وقبل أي احتياطات أخرى أو تعزيزات عملية من فبركة يد الإنسان.

وكانت جدتي تقول لنا عندما كنا نواجه موقفاً صعباً ونشكو سوء العدَّة والاستعداد قولتها المشهورة: «الحاصود يحصد بقرن العنزة».

ولكن هل انتهى الشجعان؟

إليكِ الخبر يا جدتي، طيب الله ثراكِ على صلابتك في الحق وصدق مقولتك. استطاع الطيران المعادي أن يعبر فجر هذا اليوم من فوق موقعنا، وعذرنا في ذلك أنه كان على ارتفاع شاهقٍ، واستطاع أن يبذر قنابله الصغيرة والكبيرة مابين جنبات الموقع بدون تسديد.

أكثرها لم ينفجر، والذي لم ينفجر في حينه هو بالتأكيد مجهَّز بعداد توقيت متزامن، وسينفجر فيما بعد عندما تتم الغفلة عنه، أو عندما يتقدم منه سلاح الهندسة لتفجيره، وعندها يفعل فعله المشؤوم.

بالتأكيد كان العدو متأكداً من كسر ظهورنا بهذه الغارة البعيدة المدى جرياً مع مقولته عن سلاحه الجوي ودعوته إياه بالذراع الطويلة.

انبلج الضوء عن قنبلتين من وزن ٥٠٠ كغ في موقعنا لم تتفجرا بعد «اللص يقبع في الدار، ولكنه مازال محتفظاً بسلاحه، قلت معلّقاً».

تلقينا أمراً بالرحيل إلى مربضٍ تبادلي مجهَّز سلفاً، لكن غير مكشوف بالنسبة لطيران العدو، أو غير محمَّل على خرائطه الجوية في الغالب.

طفقت الزمر القتالية تعمل بآلية فائقة السرعة والدقة في الإعداد للترحيل، وكنت تسمع:

طاقم ١: جاهز. طاقم ٢: جاهز... طاقم /٥/ جاهز... بتتابع يشبه طلقات رشاش يرمي.

يااللأشاوس، إن الحديد والنار اليوم قد صنعا منكم شخصيات جديدة، لِمَ لا والمرء نفسه معطىً من معطيات البيئة والعمل والتجريب؟ حدثت نفسي معجباً بالجنود الملتحمين بعتادهم. كاستطالات عضوية.

لم أسمع /جاهز/ من رامي المدفع /٦/.

سألت بالمكبرة الصوتية مستفسراً.

أجاب عاطف: ألستم بحاجة إلى حماية ظهوركم يا سيدي؟ لنفرض غارة جوية أتت اللحظة ونحن نفكك عتادنا فما الذي يحصل؟ خراب بيت يا سيدي: أجاب عن سؤاله، عاطف بنفسه.

ـ هذا أمر عسكري يا عاطف. هل عندك نية عصيان الأوامر؟

ـ عفواً يا سيدي، لا، ولكن أرجوك أن تسمح لي بالبقاء على مدفعي، جاهزاً للتدخُّل ريثما تصلون أنتم: وتربُّضون عتادكم من جديد.

ـ لاتناقش: أنا غير مخوّل بتعديل الأوامر، ولا أنت كما يجب أن تفهم يا مستر رومل!!. هناك من يحمي تحركنا. أم تظن أنّها سائبة؟ أو أنك، بمدفعك وحده، ستصمد لغارة جوية معادية، كاملة؟

جذبت المحاورة انتباه الطواقم القتالية، وكدت أصبح في موقف حرج.؟ رفعت صوتي محتدّاً:

ـ الوقت لايسمح. نحن لسنا في درس يا عاطف. الأوامر تقول: رحيل كلي، ولم تستثنِ طاقماً معيناً.

ـ رجاء يا سيدي، أبوس إيدك، أنا اليوم رأيت في نومي أنني أدفع طائرة إسرائيلية لتقلِع فلا تقلِع.

ـ أعوذ بالله، ماهذا الهراء، لقد نفد صبري يا عاطف، لديّ أمرٌ بإيقاع أشد عقاب بمن يخالف الأمر العسكري، وهذا المربض أصبح معلَّماً من قبل طيران العدو، ومستهدفاً. يتحتّم إخلاؤه أفهمت؟

ـ يا سيدي رجاءً. دعني أتريّث. عندي هاجس لاأستطيع مقاومته، وأنا مستعد للعقوبة فيما بعد أرجوكم. وأرجو عدم الاقتراب مني نهائياً وعدم التعرّض لي...

ـ يا للشيطان: لم أكن أعرفك بكل يباس الرأس هذا. عدَّ إلى العشرة ثم أجبني. آخر إنذار هذا.

«يحصل لك مع المقاتلين مواقف مفاجئة. هذا أمر يعرفه جميع العسكريين وجميع من قرأوا عن تاريخ الحروب. وتدَّبُر الأمر ليس بالأمر السهل. كم من العسكر أو القادة الصغار قد شاكسوا قادتهم الكبار عبر التاريخ، وكان بعضها يأتي بمآسٍ جارحة محزنة، لكن حتى الآن يبدو الموقف ليناً ومقبولاً، ولا أعتقد أنه سيُصَنَّف في رتبة عصيان الأوامر، وإنما هوة خاضع، في الظاهر، لتخيلات مقاتل، واختلاط الأمر عليه، بين مايمكن في الواقع ومايلوح في الخيال، حدثت نفسي مقنعاً إياها بطبيعية أيّ حدث شاذ يحدث، مماثَلَةً بما مرَّ معي في قراءاتي التاريخية، والعسكرية، ثم أن عاطف لم ينطق «احذركم أو ابتعدوا» بعد، لكن

إجباره على مغادرة مدفعه بقوة السلاح، أو استفزازه لينطق التحذير أمران يستويان في النتيجة وينطويان على شيء غير قليل من المجازفة. إن الرجال صناديق مقفلة، من وراء كل ذلك، كما جاء في الأمثال الشهيرة» وما مفاتيحها إلّا التجارب والمفاجآت.

كان عاطف شاباً أسمر اللّون، طويل القامة، ذا عينين يقظتين، وجهه قد قمّرته الشمس جيداً، وهو بارزٌ إلى الأمام قليلاً. وفي الجملة هو مقاتل خفيف الوزن، متحفِّز، مثال المقاتل المطلوب في الدفاع الجوي، وإيذاؤه لايناسب أبداً، ولايرضى أحداً.

وكان قُبيل المعركة قد عرّض نفسه لمشكلة انضباطية، وعرضني معه كذلك. فقد كنت أعطيته إذناً بالمغادرة إلى دمشق ليستقبل أخته التي قدمت إلى جامعة دمشق لتداوم في معهد الصيدلة والتمريض، ولم يعد في اليوم نفسه، وكنت، أنا، قد خالفت الأوامر العسكرية حيث كان قد جاءني أمر بمنع مغادرة الموقع تحت طائلة المسؤولية الميدانيّة.

ومع ذلك فقد أعطيته إذناً بمغادرة الموقع لمدة /١٢/ ساعة كرمى لعيني أخته، واحتراماً للعلم، وفي التعداد الصباحي قدمته في عداد الحاضرين إلى ذاتية الموقع. ومرَّ الصباح التالي والضحى والظهر ولم يُشرِّف عاطف!!!

من أجل ذلك عاقبته عقوبة شديدة غِبَّ رجوعه بعد الظُّهر.

وفي موقفه هذا، الآن، وفي تشبثه بمدفعه، مخالفاً للتعليمات، مستغِلاً وجود قنابل زمنيّة في الموقع، عملية إحراج لي، بدون شك. لكنني لاأظنها مقصودة من طرف عاطف، وقد رأيت في الموقف مخالفة عرضيّة، أو محاولة ردّ اعتبار من طرف عاطف، وليس عصياناً عسكرياً بمعنى العصيان لأوامر القتال صراحة، ولهذا فقد قررت التعامل معه بلين، واستنفاد كافة فرص الترشيد والمصالحة، ما أمكن، فذاتية عاطف ليس فيها مايشين. غير

أن المفاجآت في استجابة المقاتلين وطرق تنفيذ القتال، مالايخطر في بال. وضعت ذلك جيداً في حسباني.

أعطيت أمراً بالتحرك إلى الموقع التبادلي الجديد بإمرة نائب آمر السريّة، ولم يكد آخر طاقم يقليع من فوق تراب الموقع حتى دوّى انفجار هائل، لقد تفجرّت القنبلة الموقوتة، وتطايرت الحجارة والكتل والشظايا إلى عنان السماء، وحلّق الغبار والدّخان الأبيض عالياً.

وردني للتوّ استفسار من العمليات:

ـ ماذا جرى يا ملازم؟

ـ إحدى القنابل انفجرت يا سيدي.

ـ لِمَ تأخرت في الترحيل، هذا ذنبك، ماخسائرك؟

ـ لم تحدث أية خسائر يا سيدي، والترحيل تمّ قبيل الانفجار بزمن يسير.

ـ طيب تابع، أبلغنا عند تمام التربيض والجاهزية القتالية في موقعك الجديد.

ـ حاضر سيدي. عُلِم.

نسيت عاطف للحظات، وأصابني هلعٌ غير قليل، كوني قد أعطيت الجاهزية قبل أن أتأكد من حالة عاطف الذي مازال في الموقع القديم، ويرفض الانتقال إلى الموقع الجديد.

ولقد خطر ببالي أن كثيراً من الناس يلاقون حتوفهم ملاقاة، وذِكْر ذلك كثيرٌ في الأخبار والمرويّات الشعبية، وكم حدثتنا الأخبار بانقلاب قطار لاتنقصه الحداثة براكب لحق في آخر لحظة ليحلّ محلَّ راكب معتذر، أو تحطم طائرة براكب مستعجل اعتبر أن من فأله الحسن أن يعتذر

راكب عن موعده ليحل محله هو، في الرحلة الميمونة إلى موعده المرغوب.

نظرت إلى عاطف بإمعان، وحيداً على مدفعه، ملتحماً بمقابضه، وعيناه غارقتان في الإطار المطاطيّ لجهاز التسديد، ساقاه منتصبتان فوق مداوس الرمي، وقد أشبهتا، بلباسهما الكامد، رافعتي حديد من أصل المدفع، وعندما أجاب على ندائي بـ: حاضر سيدي، دون أن يرفع بصره عن جهاز التسديد، ولارجليه عن مداوس الرمي، شعرت مع ذلك بأن كابوساً ثقيلاً، بل قنبلة أخرى انزاحت عن صدري، وليس عن صدر الموقع، وكأنّ المشكلة السابقة قد توارت، مع أنها لازالت قائمة... إذن عاطف لم يُصَبْ، جيد، وإعطائي الجاهزية كان صحيحاً.

أبلغني مساعدي في السرية بتمام التربيض والجاهزية القتالية في الموقع الجديد. أبلغته بدوري إلى غرفة العمليات في القاعدة، ولكن هل سيلين رأس عاطف ويستجيب للتعليمات أم أبلّغ عنه؟ معاتباً نفسي، قلت في سرّي. إنما هل أبلغ عن عملية عصيان عندي؟! معاذ الله!!!

أنا أعرف دخيلة نفس عاطف، إنه ليس شريراً ولاخائناً، أما تأخره طيلة ذلك اليوم فليس تهرباً من واجب قتالي، لم يكن في طوعه ترك أخته وحيدة في دمشق، كيف يتركها قبل أن يؤمنها بسكن، الأهل بعثوا بها إلى دمشق وحيدة لأنهم يعرفون أن لها أخاً في تلك الجهة، وهم متأكدون أن عاطف لن يتخلّى عن مساعدة أخته تحت أقسى الظروف فمن للأخت غير أخيها؟

إنها المسؤولية الأزلية الضاربة في عمق التاريخ الاجتماعي، والتي لايمكن زحزحتها من الواجهة إلى مكان ثانوي، بجرّة قلم.

ـ أنبهك لآخر مرّة يا عاطف، أنظر. إلى جانبي عسكريان مسلحان

جاهزان لإنزالك بالقوّة عن صهوة مدفعك، هما سيناورانك كلٌّ من طرف، فهل تستطيع التعامل مع اثنين في وقت واحد؟

هل تعلن عصيانك صراحة، أم تلتزم بالأمر العسكري، وليغفر الله سوء....

لم أكدّ ألفظ كلمة (تصرفك) الملحقة بـ /سوء/ في الجملة الأخيرة، حتى كان عاطف يصرخ: طيران معادٍ، ويباشر ملاحقة طائرة معادية بكل ما أعطاه الله من لياقة وحذق وشجاعة وتمرّد وإثبات ذات.

من أين تسلَّل الطيران المعادي؟ أعوذ بالله. لم أبلَّغ عن أية طائرة معادية، جهاز تلقي الإنذار معلّق في عنقي، هل هو معطّل؟

رفعت السماعة، إنه جاهز. لأنتظر فربّما وردَ بلاغٌ لاحقٌ.

سريتنا لاتشتبك. بالعين المجردة ألاحظ ذلك. هل تسلل الطيار من خلف التلّة، ودار حولنا؟ هذا جائز، حدثت نفسي مرتبكاً،

عاطف الآن يتعامل مع زوج من طائرات الفانتوم المعادية، القاذفة المقاتلة الأسرع من الصوت، وليس مع واحدة.

انضممت إلى عاطف في عصيان أمر إخلاء الموقع الآن. سأبقى قائده في كل الحالات، صرخت به مشجعاً:

- طيب يا عاطف طيب، انتبه إلى التي تقترب دائرة من جهة اليسار،أراها بالنظارة، هل تراها؟ لاحظ تنخفض أكثر، تحضَّر للرمي من التسلّق، الواطئة!.

- أراها يا سيدي... ولعيونك. لن أسحقها إلّا عندما أتأكد أنها أصبحت في المدى المجدي، ثوان وترى مايرضيك.

- أوه، ياللروعة، ياه، لقد انفجرت الطائرة واندلعت فيها النار الحمراء

في الخاصرة، مرحى لك يا عاطف، لقد فلقتها نصفين بقذيفة مزدوجة من مدفعك الجبار.

ناور الثانية التي تصنع مظلة للأولى، فوق، مازالت تحلّق فوق التلّة متسترة بها.

أبلغت عن الاشتباك بما يسمونه في نظام الدفاع الجوي /بلاغاً معاكساً/ وهو الذي يأتي الانذار فيه من الأطراف إلى القيادة المركزية للعمليات والإنذار. لكن الثانية استطاعت أن تنقضّ على عاطف، هزت بصواريخها مربضه من الجانبين، وغاب عاطف في غمامة من الغبار والدخان والحصى وشواظ النار والحديد.

بالمكبّرة صرخت متخوّفاً عليه أتفقد حياته:

ـ عاطف، عاطف، أجبني.

درت برأسي في كل جهة، قدحت طلقة بجنح الطائرة المبتعدة، إنها هي، التي انقضت على عاطف. رأى الجميع ذلك بينما الطائرة تحمل جراحها متخلصة من الموقع، مخترقة جدار الصوت، معوّضة بالسرعة الخارقة، عما فقدته من جناح أو بعضه، فعزم انزلاق الطائرة فوق الوسادة الهوائية قد يعوضها عن بعض الذيل أو بعض الجناح لحين تخلصها من جوّ الموقع المضاد للطائرات، وبقي المنظر في العيون: طائرة بجناح مشتعل.

صرخ عاطف:

ـ طائرة بجناح واحد، وأين تروحين يا خنزيرة؟

ـ تابع يا عاطف تابع، وارم خلفها كل ماعندك، رشّاً، أبلغته، وقلت في سري: الحمد لله، إذن عاطف مازال حيّاً. ولم تأكله النيران. أو تزعزعه القذائف الموجهة إلى مدفعه. كدت أن أقول قبل ثوان فقط: يا خسارة يا

عاطف، مشيت إلى حتفك بقدميك، ولقد كنا شهدنا، من قبل، تهافت الطيارين الإسرائيليين وتكاثرهم بالرمي على دشمة عنيدة واحدة، فهم يرتعدون من مثل هذه الأمثلة المتفردة في المقاومة والشجاعة. وقد ورد في أخبار سابقة أن ثلاث حوامات إسرائيلية، بعناصرها، هبطت على رام وحيد مضاد للدروع. في جبهة الجولان، في دشمة متطرفة وقد تم رصدُ ذلك من الجو.

كان لابدَّ لي من مباركة مافعله عاطف، كما لابدَّ لي من معاقبة عاطف لمخالفته الأوامر.

وإذن لأبدأ بالمباركة، ولتكن طريقاً إلى الباقي، طريقاً مضمونة، صرخت بالمكبرة:

ـ انزل يا عاطف انزل لنتفقد جسمك. آ... آ.... انزل بسرعة، بلاغ باللاسلكي إلى كل السرايا. ونحن واحدة منها.

يردني توّاً: نتوقع غارة لاحقة كثيفة، تريد الموقع ربّما قد تحلّق من مطار /رامات دافيد/ أقرب قاعدة جوية معادية إلينا في الأراضي المحتلة. أعلنت بمكبرة الصوت الميدانية المحمولة على كتفي.

ـ أجّلني يا سيدي دقيقتين أخريين، أرجوك، لم يبرد دمي بعد.

ـ لم يعد عندك ذخيرة. انتبه.

ـ باقي عندي طلقتان.

لكن عاطف لم يكن يعلم بعد أن سبطانتي مدفعه قد علكتهما الصواريخ، قلت له:

ـ ارفع بصرك عن جهاز التسديد وانظر ماحولك، أمامك مثلاً.

لايمكن لأيِّ وصف بالكلمات أن يرسم كيف التوى عاطف على

المدفع وقد سُقط في يديه وهو يفاجأ بسلاحه وقد... التوت مواسيره وكأنها خارجة من فرن للصُّهر. كيف هو منظر الأعزل الذي يفاجأ بالمسلحين؟ هكذا كان منظره عندما عاين سبطانتي المدفع المهشمتين والملتويتين.

تابعت مخففاً عنه:

سأجعلك ترمي الطلقتين المحظوظتين من موقعنا الجديد، وبمدفع جديد.

استيقظ عاطف من بهتته ليراني إلى جانبه، لم أك متاكداً من أنَّ رجليه ستطاوعانه على الانتصاب بعد الهجوم الجوي الصاعق الذي تعرَّض له منفرداً، إلا أن خيط العطف الذي كان ممدوداً مني إليه فعل فعله، وصبَّ الدم والحرارة في مفاصل عاطف وعضلاته وقلبه، وهاهو ذا يؤدي التحية منتصباً قبالتي، أنا، الذي كنت أحدس أن حالته ليست عصياناً، ففي بعض المواقف قد يتصرَّف اللاشعور آخذاً الدور القيادي من الشعور. وتاريخ العمليات والمواقف الصعبة يشهد بذلك، أهناك طاقة أخرى؟ أو عقل آخر يقود المرء في المواقف الحرجة؟ وتبقى المواقف بدون تعليل مقبول مع أن النتائج تأتي لصالح التصرف الذي ظهر للوهلة الأولى شاذاً، وطفريًّاً، وغير مجهَّز بأي قانونيَّة أو قاعدة مقبولة أو منطق؟

كنت أنا أطلب أمراً عسكرياً، وأتحدى عاطف به.

وكان عاطف ينفِّذ حاسة سادسة، حالة من حالات اتصال المخلوقات بالمحيط، روحاً، تجاذباً، تجاوباً، تلبية، استجابة، طفريَّة، وإلا فما الذي دعاه لتعريض نفسه لخطر العصيان لو لم تكن نفسه متصلة بكشف فوق - حسي لم يقع بعد، هذا الخبر يؤكد له التثبتُ من حصوله على إنجاز كبير، سيرجِّح كفَّته ويعلي ميزانه، وتخفّ موازين العصيان حياله.

أمّا أنا، من جهتي فكنت أؤمن، في سري، بأن الأوامر العسكرية غير

منزلة من السماء، وقد يسوغها تعميم، والتعميم دوماً يطوي ألغامه في طياته. وأذكر أن بعض كبار القادة كانوا يسكتون أحياناً أمام مخالفة للحاجب، أو للمراسل الحربي، هم أيضاً مسكونون بحاسة سادسة عليا، باصرة لبعدٍ أكثر خفاء وغموضاً، وابتعاداً عن التعليل، وليس الأمر كما يبدو، لأول وهلة، تباطؤاً أو ليناً أو ارتباكاً في الفهم، أو سوء ردّة فعل.

هاهو ذا عاطف يستوي أمامي مجيباً ملبياً، كالعادة، وما مرَّ معه، كأنه مرَّ في حلم، لم أجد نفسي إلا وأنا أصافحه بحرارة مابعدها حرارة، متفحصاً جسده من آثار الشظايا والقصف، مباركاً له بصموده وباستبصاره العجيب، لامهدداً، ولامتوعِّداً بل على العكس، مسجلاً اسم عاطف على رأس قائمة الأسماء التي سأرفعها إلى القيادة من أجل منحه وسام الشجاعة للجيش والقوات المسلحة السورية الباسلة.

ولسان حالي ينطق:

قد يغفر النجاح في المهمات بعض الخطايا حتى ولو كانت المهمات غير ممهورة بخاتم الموافقة، وإن قوانين القتال، ستختلف، كثيراً أو قليلاً، عن القوانين المرسلة بأوامر عسكرية عليا، أو المحملة على خرائط ميدانية يصعب المساس بهيبتها التكتيكية. هذا. مع رغبتي الداخلية، بل ثقتي المطلقة بأن الخطط المرسومة على الورق هي المخطط الأمثل للعسكري، والذي، لو اتبعه، لحصد فوزاً مؤكداً.

رسالة... من تحت الثّلج

برد الجوّ، وأصبحنا لانرى وجه الشمس إلّا لماما. والغيوم أصبحت غطاءً يومياً لنا، لايبدّلنا ولانبدّله، بعضها أسود. وبعضها أبيض فوّار كشواطئ من قطن مندوف، كم تمنيت أن أتقلّب عليها.

مرة كانت هذه القطع البيضاء الفوّارة وجه الحبيبة يتجلّى... من جهاته المختلفة، وأخرى كانت شعرها الحريري الطويل، المسترسل حتى الكعبين تحت أشعة شديدة السّطوع.

ومرّة كانت ثيابها البيضاء الهفهافة، وهي ترتديها، قطعة بعد قطعة، أو تخلعها. قطعة إثر قطعة، وهي تدير ظهرها مرة، وصدرها مرة، للمرآة....

ومرّة أخرى، كانت ثلجاً مكوّماً في الموقع العسكري، نتراشقه، أنا وهي، في وجوه بعضنا.

هذا اليوم هبط الليل بارداً، واقتربت الغيوم من سفوح هضاب الجولان أكثر فأكثر، لم نعد نميّز شيئاً إذا ابتعد عنا أكثر من مسافة عشرة أمتار. حتى في ضوء الأنوار الكاشفة. أما جبل الشيخ، وقمم حرمون فقد اختفى عنا مظهرها المهيب تماماً.

آوى الجنود إلى الخيم العسكرية ماعدا الأطقم المكلفة بالمناوبة والدوريات المتحركة.

أويت إلى خيمتي العسكرية وفحصتها من الداخل. هززت أعمدتها

لأعرف مقاومتها للعاصفة. هل ستطير وتتركني وحدي؟ أم ستقع فوقي حتى لاتتركني وحدي؟!

وإذا مافاضت الخنادق بالماء، وتشرب التراب الماء فستنهار الأوتاد، وإذن لابد من الحجارة الكبيرة. توضع على أطراف قماش الخيمة من الخارج لتكون أكثر ثباتاً.

قمت بهذا العمل بمساعدة مقاتل واحد. لم نكد نتمّ العمل حتى بدأ القطن المندوف يتهادى بخفة ونعومة، وسررنا جميعاً لمنظر انسكاب الثلج ماالسرّ في مفعول هذا المشهد في الإنسان؟ لاأحد يعرف.

دخلت الخيمة، ورتبت السرير الحديدي بحيث جعلته من الناحية الشرقية والزاوية اليسارية للخيمة لأنها الجهة الأقل تعرّضاً للأمطار والرياح، تناولت عشاءً خفيفاً من جبن وزيتون بلادي مع الشاي والخبز، ثم استمعت إلى نشرات الأخبار من عشرين إذاعة تقريباً. باعدت مابين فتحتي الخيمة، المدخل، فلم أشاهد أن الأرض قد ابيضت بعد، لكنني استطعت أن أبعث في ناظري الغيوم البيضاء تفور من فوق جبل الشيخ، ثم تذكرت حبيبتي، كعادتي قبل النوم، لكي أرى أحلاماً سعيدة.

لاتؤاخذوني، فسأدافع عن نفسي أمام تعليقاتكم التي ربّما تكون باردةً جداً، وحتى جليديّة:

إنني مقتنع تماماً بأن الذي يتقن الحبّ، هو نفسه الذي يتقن الحرب، الدفاع عن بيت الحبيبة ضد الذين يحاولون قصفه بطائراتهم، وتهديمه فوق رأسها، هو نفسه الدفاع عن الوطن، والحبيب الوفي لحبيبته هو نفسه المقاتل الوفي لتراب الوطن.

عند الصباح الباكر. وقُبيل الفجر الأول. رنَّ جرس هاتف الميدان بجانبي يطلب إعطاء الجاهزية القتالية. ككل يوم.

نهضت دون تأخر، ارتديت بدلتي الجوخ العسكرية، ثم انتعلت نعليَّ العسكريَّين السميكين، زررتهما جيداً وارتديت المعطف العسكري والخوذة الفولاذية. تأبطت بندقيتي الآلية /الكلاشينكوف/ أخمص طيّ/ وتجهيزاتي الميدانية الأخرى.

اتجهت نحو باب الخيمة أشقُّ طرفيه القماشيين بيديّ لأخرج إلى العتاد والرجال، وأبلّغ قيادة الموقع الجاهزية القتالية.

ماكدت أشد القماش حتى اكتوت أصابعي ببرودة شديدة من شيء ناعم، شددت أكثر، ولم أستطع تخليص قماش الخيمة عن مستوى سطح الأرض إلّا بشدّ إضافي وباتخاذ وضعيّة معينة للجذع، أشعلت البيل الصغير الذي كان يرافقني دائماً، فسطع نوره كثيراً في الخارج. بوهج لم أعتده فيما مضى عند النهوض ليلاً أو باكراً.

عدت إلى طرفي الخيمة فشددت بينهما بكل قواي، فانفجر الباب القماشي عن كتل ثلجية كبيرة، تدحرجت إلى داخل الخيمة القماشية ومازالت... «يا إلهي، يا إلهي ماهذا السخاء. هل أصبح القطب المتجمد كله داخل خيمتي؟».

ـ الثلج في الخارج يطمس كامل معالم الموقع، أين أنت يا عيشا؟ أما كنا تواعدنا أن نتراشق بالثلج هنا؟

الثلج مازال ينهمر وينهمر قطعاً مرفرفة كبيرة، كفَراشٍ أبيضَ لامتناهي العدد، يقوم بالرقص في مهرجان ملائكي.

تقدمت إلى الأمام، ضلّت أحذيتي في الثلج. ثم خرجْتُ بيضاء كالثلج حتى أعلى حافتي كاسيتَيْ الساقين «الطّماقين» غير أن كل هذا مزحة بيضاء لطيفة لاتعيق العمل القتالي، فخلال لحظات كان الجنود على مدافعهم وآلاتهم ينفضون عنها أكوام الثلج، يختبرونها، ويبلغونني الجاهزية القتالية.

الثلج مازال ينهمر وينهمر. تقدمت الساعة حتى وافت الثانية عشرة. فالثالثة عشرة ونيِّف.

لاطرق عادت تظهر. لاسيارات تسير. لاطائرات تحلّق، لاأصوات، لانأمة، لاحركة، البياض الناصع أصبح يغطي كل شيء، البياض المهيب فرض وجوده على الناس. وعلى فوّهات المدافع. الجو مازال مدلهّماً أغبرَ أو أشهبَ. التلال غدت قباباً بيضاء ناهدة.

العربات والدبابات صارت مكعبات بيضاء، صار الجنود يرسمون على مواسير المدافع وسطوح العربات وجوه من يحبون، ليس الثلج بارداً ولامؤذياً عندما يحمل في طياته إمكانية استحضار وجوه المحبوبات. والأطفال، صدِّقوني.

في وقت السهرة. لم أستطع أن أخالف الخطّ العام لمشاعر الجنود. فأنا واحد منهم، أولاً وأخيراً. لكنني لم أنجح في الرسم فوق القطب الذي افترش قسماً من خيمتي. ولهذا فقد قررت، وخيمتي الميدانية تهتزّ تحت ثقل غطاء الثلج من فوق رأسي:

الرسم بالكلمات، بدل الخطوط والظلال، فامتدت أصابعني إلى القلم والورقة، وكتبت الردّ على رسالة سابقة من عيشا، وجعلت العنوان:

رسالة... من تحت الثَّلج

حبيبتي عيشا
وعيني أومن عينيك
كما يؤمن السمك مياه البحيرات
وعيني أتقلّب على مبسمك
حرفاً حلو الطعم
كما يتقلّب السيّاحون فوق رمال الشواطئ السورية الناعمة
أنا الذي مازلت شعاعاً بعيداً
يفتح له كوّة في أدغال شعرك
أنا الذي يجهد أن يكون قطرة ماء باردة
بعد العوم تتدحرج بحذر فوق عنقك العاجي

* * *

أنا الذي أصبح لي اختصاصٌ بروائح العطور
لم يبق في أنفي غير رائحة عرقك مستقرة

* * *

أنا الذي سخرتُ من الموسيقيين
بعدما تولّفتْ أذناي مع هزيج ضحكاتك

* * *

اضحكي.
اضحكي وعزّي الموسيقيين والمغنّين

لأنهم اوعدوا ألقاباً كبيرة في غيابك
اضحكي
وعلميهم أنغام الضحك المدلّل المغناج.
تلك التي لم ترتسم على سلالمهم الموسيقيّة
وعلى موجات الأصوات الصغيرة المغزوة
وترجيعها الفرد التوقيع
ستنتهي كل أحزان العالم
وتحلّ مشكلات الشّرق والغرب.
وصراع الطبقات
والعداء المستحكم بين الاشتراكية والليبرالية
ويقضى على مرض السرطان
وتتحوّل القنابل الذريّة
إلى بلابل في أكف أطفال «كزغب القطا»
ويقضى على العنصريّة
وعلى الطائفية...
وعلى الأنانيّة...
ومن ثمّ أعود إليك
لو تعلمين من أين أكتب، أضحك
من أين أسمعك
من أيّة أرض مدروزة بالجنزرات
من تحت أية سماء شهباء مشقّقة بالصواريخ
ملفوحة بشواظ من نار
لعلمت أيّة معجزات يطوي الحبّ

* * *

أكتب إليك من الجبهة السورية الصامدة، من الجولان

وأترنّم من هناك، مع المدافع والطائرات
وأسمع صوتك من بين كلّ صفير القصف
موسيقا اللاتّقاوم
في أرضٍ وُشِمَتْ بالكآبة التشرينيّة،
خنادقَ وحفر، ودباباتٍ وقواعد... مشكّلةٍ بعنايةٍ
تحت سماءٍ رُصفت باحتمال النار شبراً شبراً
أرخت ملاءةً بيضاء أنيقةً هذا اليوم،
«تحيّة العام الجديد»
أسمعك. أكتب إليك. أحارب. أتلقّى وأُلقي القنابل.
أنام وأصحو، أتدفأ وأبرد.
أبقى أناور، سمكةً حمراء تعوم في مقلتيك
أرسم وجهك فوق الثلج
وعلى مواسير المدافع وأجنحة الصواريخ
وقبّة خيمتي العسكريّة
أستميلك إليّ من جديلة شعرك، لم لاتصرخين كالعادة:
آخ... أوجعتني؟
أنا لن أوعي كالآخرين،
أنني أدافع عن أرض بلادي
مجزوءة هكذا. فذا فضول كلام
إنّما أنا: بلادي من أحبّ
ولهذا. فأنا أحاول إخراس عواء الوحوش المرعب
وإسكات مدافع الأعداء
لكي أسمع صوتك الضاحك بشكلٍ أفضل
ولكي أستحمّ بين شفتيك نغمةً مسترخيةً بهدوءٍ أطول
ولكي أتقلّب في عينيك بحريّة ومناورة أكثر
ولكي أنفذ إلى غابات الاستثناء المكتظة مقطّع الأنفاس

ولكني أستطع الالتجاء إلى صدرك الحنون

صياواً تائهاً

للاحتماء من العواصف الثلجية

ولهذا... فإنني لن أبرح مكاني

قبل أن أطمئن إلى حصولي على كل العطايا السابقة

ودون استنفارات تضطرني للرحيل

كلما خطر للعدو

كسر الباب الخلفي على حبيبين متعانقين

* * *

فاضحكي. واضحكي. واكتبي لي

وغني، وغني، وغني

فقريباً كان الحب

تعويذة الأوطان المنيعة

فلا بدّ أن ينخذل الأعداء

ويكشف النور قطاع الطرق

الذين لطأوا في المفارق من بلادي

في غفلة من الزمان

ناشرين فوقهم... وحتى حين،

وخان التوراة الأشهب.

الجولان في ١٩٧٤/١/٢٢

الوفي

ملاحظة للتذكير: هذه المذكّرة هي بعد قرار وقف إطلاق النار على الجبهتين، وهذا واضح من تاريخها المدوّن أعلاه.

صناعة الرجال

لم يكن أبطال قصصي من صناعة الخيال، وإن دخلوا في كثير من أحوالهم إلى حَلبَاته، ولم تكن تلك البطولات نسيجاً من التطلُّعات أو الوهم المستمطَّر على ورقة بيضاء، فوق طاولة منعزلة في ركن قَصيّ. إنما هي من مواليد الميدان أمّاً أباً، وفراشاً، غباراً عرقاً، ونجيعا.

ولكن أين كانت تلك البطولات والهمم الدفينة قبل حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣؟

وأين كان يختفي أولئك الرجال الميامين الذين لم أرهم، وحدي، يتقدمون مقتحمين خطوط النار والحديد، أو متربصين للهجوم المعادي وقد وضعوا أرواحهم على أكفهمه غير هيابين، وإنما رآهم كل مبصر أو مستبصر غير منكر ولامنحازٍ في شرق الأرض وغربها.

هل للقادة الأفذاذ عطرٌ خاصٌ يأخذ بصدور الرجال شهيقاً؟ أم أن لهم حقل موجيٌ يستنفر إليه معادن الرجال كالمغناطيس؟ هل للعظماء قوىً خفيَّة أم تشععٌ مداريٌّ، أم تواتر روحيٌّ يصل إلى الإرادات فيستفزّها، وإلى العزائم فيستنهض هاجعها، ويتقدم بحائرها خبباً إلى الأمام، وإلى الآمال الخابية فيجري بسرابها ماءً زُلالا؟!

أم أن الأسد هو ذاك الذي خلّق العزائم، وولّد الإرادات، واستقطب الهمم، وأنهضَ المتون، ثم نشّط بالتشعيع، وبعث بالإيحاء، وحرّك بالموجة، ودفع بتيار الإرادة الخافي على الرصد بأولئك الرجال إلى حلبات

الصراع وساحات الفداء الوطني مفتوحي الصدور مرفوعي الهامات؟

يقيناً هو الأسد.

ولايمكن القول بغير ذلك أبداً، فالرجال، كانوا ومازالوا، هُمُ هُمُ في بلادي، والسرّ كل السرّ في القائد لحظة يستطيع أن يوقّع بأنامل الواجب والعزم على أوتار الإرادة في الرجال.

فيا أيها القائد العربي الفارس الشهم، محيي الإرادات في الرجال، ومفجّر البطولات في الأبطال، ومعزّز الأرواح في الأجساد، والهِمّات في الصدور، أيها المصُوغ من خلاصة معادن الأفذاذ الصّلب في الحقّ صلابة الفولاذ، لك تحية الأجيال مخضوبةً بأريخ النضال. وقد بقيت في صدري كلمة لابدَّ من أن أزجيها: «وقفتُ على الجبل المطلّ على روما، ونظرت في البعد المترامي... فرأيت خيولك تسوطُ السّهلَ والجبَلَ غباراً.. ياهانبال العرب...

ولكنّ مجلسَهم... في قرطاجة... أصدر أوامره إليك... بالعودة آن لم يكن قائد روماني واحد، يجرؤ على الخروج من خلف الأسوار».

إعتذار

قال العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لايكتب إنسان كتاباً في يومِه إلّا قال في غدِه: لو غيرُ هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك ذاك لكان أجمل.

وهذا أعظم العبر على استيلاء النقص على جملة البشر».

وإني لأتمثّلُ بقول الكاتب العربي الكبير، الموسوعي، العماد الأصفهاني ـ واجداً فيه مسوّغاً للاعتذار عن نواقص أو هفوات خالستْ قلمي، وهي ناتجة عن استيلاء النقص على جملة البشر، الذين، أنا واحد منهم.

الكاتب

الكاتب في سطور

يحيى خضور من مواليد الجمهورية العربية السورية ١٩٤٠م.

- حائز على درجة الليسانس في اللغة العربية وآدابها بتقدير جيد من جامعة دمشق.
- حائز على دبلوم في التربية وعلم النفس بتقدير جيد من كلية التربية ـ جامعة دمشق.
- درّس اللغة العربية وآدابها داخل القطر وفي المغرب العربي الشقيق.
- كان له شرف المشاركة في حرب ٦ أكتوبر تشرين الأول التحريرية عام ١٩٧٣.

● صدر له مجموعات قصصية مطبوعة:

- جائزة لأقبح وجه بشري ـ دمشق ١٩٩٤.
- رحلة في القطب المتجمد العربي ـ دمشق ١٩٩٥.
- قيد الطباعة شهرزاد تستردّ مملكتها ـ دمشق ١٩٩٨

● مجموعات قصصية قيد الإنجاز:

- البيت والدخان.
- دموع... للتاريخ.
- مساحة... من الوهم.
- دكتور مسبق الصنع.
- جلسة في برلمان المثقفين.

● ديوان شعر قيد الإنجاز بعنوان:

- من يستحق الوطن؟!



البيت والدخان

تحمل المذكرة في طياتها طابع المكان والزمان فتأخذ فتأخذ نَسَباً تاريخياً مقيداً بالواقعة.

وتحاول القصة ـ كإبداع فني، الطفوّ فوق تقويم الزمان والمكان لتنتسب إلى كامل المطلق الإنساني الذي يحتوي الزمان والمكان في طياته تجربةً إنسانيةً حيّةً على الزمان غير مقيدة بعيّنة الواقعة.

وقد استطاع القاص يحيى خضور، بما أوتي من مهارة فنّية، ترفدها تجربته الحيّة التي عاشها في أحداث حرب ٦ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٧٣ م، كمقاتل على الجبهة السورية ضمن قوات الدفاع الجوي السوري أن يطوّع التاريخي للفنّي، والفنّي للميداني، فجاء بقصص جذابة ملوّنة حملت إلينا غبار المذكرة الميدانية ـ عطر المعركة كما يحلو له أن يسميه ـ في رداء إبداعي ملون شفيف. مُحيلاً غبار الميدان إلى أثواب هفهافة طافت بها قصصه مابين المواقع العسكرية، وتحت القصف الجوي الصهيوني المعادي غير هيّابة.

ولعلّ أدب الملحمة هو أغنى أنواع الأدب عن التزويق والتلوين. فهذه القصص هي قِطَعٌ من لحم ودم اللحظة النازفة من شريان الزمن ـ المعركة ـ التي استغنت بأثواب الكفاح والجراح عن استعارة أردية الإقناع القصصي الإبداعي.